

فلسفة الفلسفة الغربية

مديرها الدكتور عثمان أمين

هيوم

مجاورات في الدين الطبيعي

ترجمه وهدم له وعلق عليه
الدكتور محمد شوقي الشنبلي
مدرس الفلسفة بمهنة القاهرة

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الفقه الإسلامي
١٦٩ شارع التحرير، القاهرة

تصدير

للاستاذ الدكتور عثمان أمين

أستاذ الفلسفة بمهنة القاهرة

يسرني أن أقدم اليكم إلى قراء العربية الكتاب الرابع من سلسلة
فلسفة الفلسفة الغربية ، الذي أعلنت عن اختياره للترجمة منذ
عشر سنوات . ويريد من سروري أن الذي اضطلع بالترجمة هو
تلميذي وصديقي الدكتور محمد شوقي الشنبلي : فقد عكف المترجم
الفاضل على دراسة مؤلف هذا الكتاب بضع سنين ، فأثمرت دراسات
بشراً فيما نال به درجة الماجستير من جامعة القاهرة . ولم تقطع
صلة الشنبلي بهيوم بعد الحصول على الدرجة ، بل كان من دواعي
اغتيابي أن أراه ، إبان بته باريس ، يعود إلى حجة فلسفة
المختار ، متابهاً درسه واستقصاء أفكاره ، فأثمرت هذه الصلة
الطويلة الرائعة رسالة دكتوراه من جامعة باريس عن فلسفة هيوم
الأخلاقية والسياسية .

ولاشك عند من يدركون الروح الجامعية ويقدرونها حق قدرها ،
أن صنيع الشنبلي هذا ، في عكوفه على فلسوف بته بتمه ويطيل

حق الطبع محفوظة للزائف
الطبعة الأولى
سايو ١٩٥٦

جاء يقينا تدعو إليه الحياة . ولعل هذا هو ما تشير إليه المحاوراة الأخيرة
من كتاب « المحاورات » ، إذ بين « فيلون » كيف أن تقده للدين
الطبيعي يفسح المجال للوحى والإيمان .

وإن إذ آمل أن يقضى قراء العريفة في صحة هذه « المحاورات »
فترة طيبة من التأمل الفكرى والمثقة الروحية ، أرجو أن يعينا الله
على المنى في تحقيق هدفنا من تعريف العالم العربى بفنائس الفلسفة الغربية .

عبدالله أمير

السامرة في مايو ١٩٥٦

أنظر فيه ، هو مثل طيب للإخلاص للفكرة ، والرغبة الصادقة في
المعرفة ، والسير الدائب نحو الإيقان .

أما هيوم مؤلف « المحاورات » فقد شغل في تاريخ الفلسفة مكاناً
مرموقاً ، واعتبر بحق رائداً من رواد التجديد الفلسفى في العصر
الحديث . حمل حملة قوية على المذاهب « القطعية » الجامدة في مختلف
صورها ، وشدد الكبر على النظريات الاعتقادية المتوترة التي تبالغ
في تقدير ما للعقل الانسانى من قيمة وترى أن في الامكان الوصول
إلى معرفة الحقيقة في يقين .

وكانت نتيجة هذه الحملة الفلسفية المشهورة أن وصل قائدها إلى
ضرب من « الارتياح » الجديدة ، والتفكك المعتدل ؛ أى إلى مذهب
هو وسط بين تلك والاعتقاد ، كما رأى الدكتور الشفيط نفسه في كتابه
الذى يطبع الآن عن هيوم وفلسفته ، وخلاصة هذا المذهب الجوى أن
مهمة الفلسفة هي في صميمها مهمة « نقد » وتمحيص : تبدأ بقصد العقل
الانسان والنهوض عن أصول تصورات ومبادئه ، وتنتهى بقصد العقائد
الأخلاقية والدينية ، فتبين أنها ترضى في الانسان أعق حاجاته
ومطامحه .

ومن الإنصاف لهيوم أن نفيه هنا أن الرجل لم يدرك حقيقة أبدأ
أن يطلق الفلسفة ، ولا أن يجر الميتافيزيقا ، وإنما أراد أن يفتح لهذا
العلم طريقاً جديداً وأن يقدم له موضوعاً جديداً .

ومن هذا الوجه كان مؤرخو الفلسفة على حق ، حين رأوا في
الفيلسوف الاسكتلندى أباً روحياً للفيلسوف الألمانى كانط ، صاحب
« المذهب النقدى » الكبير . والواقع أن « كانط » نفسه إند إلهاد
بمقربة هيوم ، وأعترف بفضل عليه ، فقال في كتاب « التبريدات لكل
ميتافيزيقا مستقبلية » : « لقد أخذت رسة من اليوم ، لجاء إيهيوم
وأيقظنى من نيامى القطي . . . »

ومهما يكن من اختلاف في النتائج التي انتهى إليها هذان الفيلسوفان
الألمان ، فمن الحق أن غابتهما من البحث واحدة ، وأن روح فلسفتيهما
واحدة : أما الناية فهي المعرفة « الإيجابية » ، وأما الروح فهي الروح
« النقدية » .

ولكن ما القول الآن فيما نسب إلى هيوم من تفكك صرف هذا؟
إن رأينا في هذا مثل رأينا فيما تشب زوراً إلى « كانط » من هدم
الميتافيزيقا وتقويض الدين . وليس هنا مجال الكلام لإنصاف فيلسوف
الألمان . وحسبنا أن نقول إن تفكك « هيوم » في أمر « العملية »
من الناحية العقلية ، قد انتهى إلى تبرير الاعتقاد بها من الناحية العملية .
ويبدو كذلك أن تفكك هيوم في الأمور الدينية إنما هو تمهيد لليقين

مقدمة

في اليوم العاشر من مارس سنة ١٧٥١ كتب هيوم^(١) في خطاب له إلى أحد أخواه وقد انتظف له فيه جانباً من محاوراته في الدين الطبيعي . يمكنك أن تدرك من النموذج الذي عرضته عليك أنني أخذت من (كلياتش)^(٢) بطل الحوار^(٣) . و (كلياتش) هذا صورة الرواق في العصر القديم وباركلي في العصر الحديث ، فهو من ثم فيلسوف دجاطيق^(٤) ويقابل شخصية (كلياتش) شخصية فيلسوف شك هو

(١) راجع حياة هيوم ونفسه في كتابنا « فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد » الناشر مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٥٦

(٢) (كلياتش) ولد ١٧٣١ ق.م. أحد أعلام المدرسة الرواقية القديمة على معرفة مدة طويلة على شئون المدرسة وفي عهده ضعف نفوذ الرواقية واشتدت على القهقري الرواقى حملات الأبيقوريين وأنصار الأكاديمية القديمة . ومن أشهر مؤلفاته قصيدة رائعة هي [أنشودة إلى كيرس] . ويذكر عنه النعيب فرأى والتفتت [أنظر في هذا كتاب [الفلسفة الرواقية] للدكتور عثمان أمين - القاهرة سنة ١٩٤٥ من ٢٦٠ ٢٥]

(٣) Burion : Life & Correspondence of David Hume (٣ Vol. I P 581

(٤) Dogmatic أى الذى يبرر الحكم ويأمله Sceptic الشك أى الذى يوقف من الحكم .

- ٤ -

(فيلون)^(١) تعاكى ميوله ميول (شيشرون) في كتابه عن طبيعة الآلهة^(٢) وتطابق ميول كتاب آخوين (كورتاني) . يد أن هذا الشك التقليدى أخذ لدى هيوم أنهما يبتدى بهدى دراساته الخاصة في المعرفة وفي الطبيعة البشرية . فقد كان هيوم يشعر شعوراً عميقاً بانفراج العقل فيما يقوم من استدلالات في مجال التجربة ولم يكن له أمل ما في الوصول إلى معرفة ثابتة عن أي شيء مالم يتبع منهج التفكير العلمى الدقيق ، ذلك المنهج الذى اتبعه من قبل في دراساته في الأخلاق والسياسة والتاريخ والاقتصاد فتوسم فيه غيراً في مجال اللاهوت والدين : ولكن هيوم في مذهبه الفلسفى عامة لم يستطع أن يعرف طبيعة النفس أو (الأنات) تمريناً واضحاً فالملك طبيعة الله ومن هنا نلس قلقه الفكى على لسان (فيلون) يراجعه إيمانه الاعتقادى متشكلاً في حديث (كلياتش) .

وتتطلب نظرية الاعتقاد في الفصول الخمس الأولى من المحاورات ،

(١) [فيلون] اللاتينى وهو غير [فيلون] الألكندري . ولد حوالى ١٤٨ - ١٤٠ ق.م. من مؤسسى المدرسة الأكاديمية الرابعة ومن مدارس الشك عند اليونان الهلنسى . كان من رايه المحاكمة لا لتغيير رأى معين بل لنقض جميع الأولويات التى يدعى بها الغير . وكان يحاكى [تارتيانس] الأكاديمى . اشتهر بفصله وذاكرته الحاضرة وكانت من رايه أن أسساً لا يعلم أن يقع الفصيلة مالم تتوفر له دراسة المذهب الفلسفى . وله تأليف في هذا المرمى جميع أصوار الأكاديمية في ذلك العهد .

أطرس ٢٥-٣٦ من [الفلسفة الرواقية] . للدكتور عثمان أمين - القاهرة سنة ١٩٤٥ De Natura Deorum (٣

- ٥ -

ولعل هذا الجزء معاصر لمقال هيوم « التاريخ الطبيعى للدين » حيث ذكر أن نظرية الاعتقاد معتقد سليم .

وفي عام ١٧٧٦ وقيل وفاة هيوم ثلاثة أشهر كتب إلى ناشر كتبه (ستراهان) يمدحه عن المحاورات قائلاً لقد درست فيها شاكراً فأجاب على أمره حقاً وتخلياً في النهاية عن حجة بل اعترف بأنه كان وحسب يسرى عن نفسه بكمالاته . ولكنه قبل أن يلزم بالصمت قدم موضوعات جديدة . ومن ثم يلوح أن (فيلون) لا يشير وحسب اعتراضات على الحجج المنالقة عن نظرية الاعتقاد بل ويشير كذلك مواقف جديدة ليست مألوقة عند الباحثين .

وبعد أن عاد هيوم إلى المحاورات هاله - على ما يظهر - هذه التأملات المخاطرة في مجالات الفلسفة الهادئة . وعلى ذلك فمتد مراجعته لما أرتأى أن من المحتم عليه أن يركز لصديقه وناشر كتبه (ستراهان) أنه لا يرى إلى انتقاد (فيلون) قن يؤلفه . ومع هذا نجد الاتجاه الشكى هو الغالب في الفصول الستة الأخيرة من الكتاب .

وأجماً كان فالرغم من تبليغ فكر هيوم في غضون الفترة التى قضاها في كتابة محاوراته فقد كان يهدف دائماً إلى روح الحوار واضحة نصب هيوم كتاب (شيشرون) « طبيعة الآلهة » فكان يماود هذا الكتاب بالدراسة بين حين وآخر .

Hendel : Studies in the philos. of D. Hume ch. xl p 305 (١)
T. B. Hill : Letters of D. Hume to William Strahan. (٣ Oxford 1888 P. 839

وقارىء المحاورات يلاحظ ما هناك من تعادل بين المتحاورين .
والواقع أن هذا الأسلوب الحوارى الذى أقره هيوم واختصه بتأريه
بلغ غاية الروعة فى الأداء والصدق فى التعبير . ومع أنه جعل (كياشس)
يعبر عن آرائه الخاصة فانه أدى دور الشاك أداء بلغ من الجودة حداً
جعله يستعين بصدقته (إليوت) (١) على دعم الحجة الاعتقادية .
ومن ثم لم يكن لغوا ما يقوله الشاك أو الدجماطيقى ، وإن الحقيقة
لتتكشف فى ثنايا مناقشتها . ومن هنا كانت المحاورات - بحق -
مثلاً للتفكير الفلسفى الجبرى على نخط الشك الأكاذيبى .

ويقدم هيوم الحوار بمقدمة آخر أن يتخذ لها صورة خطاب من
(بامفيلوس) إلى (هرميتوس) ولابد أن هذا الخطاب قد كتب بعد
الفراغ من كتابة المحاورات (٢) . والخطاب يصمتنا فى وداعة ويسر بأنه
ينبئ لنا أن تنايع الحجج فى سياقها وألا تملق بما يقوله هذا أو ذاك
من أبطال الحوار . فلم يكن أحد من (فيلون) أو (كياشس) يعبر
تعبيراً مطلقاً عن آراء هيوم ؛ بيد أن فى وسعنا أن نستطلع فى
(بامفيلوس) شخص هيوم نفسه ، (بامفيلوس) الذى سجل هذه
المحاورات من ذكريات صباه ، والذى يعبر الآن ، بعد أن تم نضجه
وبلغ رشده - بقدرته على بسطها بطلاً أميناً كما سمها وتمكنه من فهم

(١) Burton : Vol. I pp. 331 - 332
(٢) Hendel : ch. xl P. 306

معناها وإدراك مغزاهما . يبدو من هذا أن (بامفيلوس) يمثل شخص
هيوم الذى أحرق قبل كتابة هذه المحاورات بوقت قصير عظمواً
وكتبه قبل بلوغه العشرين وكان يحوى من صفة إلى أخرى تقدم
أفكاره فى هذا الموضوع . فقد استهل بحث قلن عن حجج تأييد
الرأى الشائع ثم انتقلت الشكوك وتبدت - عاودت الظهور ثم تبدت
من جديد وعادت إلى الظهور مرة أخرى . . . لقد كان هذا صراعاً دائماً
من خيال مكشود ضد القرينة ودعماً ضد العقل (١) .

(إذن (بامفيلوس) هو هيوم يمرض على المسرح أحاديث صباه
التي أنصت به إذ ذاك إلى اكتشافات خطيرة تختص بالمعرفة البشرية
وطبيعة الانسان . وبامفيلوس ، هذا هو الذى يسجل الحكم الأخير
بعد أن بدى بتعليقاته ذات المغزى بين القرينة والقرينة فى سياق المناقشة
دون أن يشترك فى الحوار .

وفى عام ١٧٦١ تمت المحاورات على نحو ما قرأها الآن . وربما
كتب هيوم حينذاك خطاب الذى استلها به إذ تطلع فى هذا الخطاب
شيئاً جديداً (٢) . فهو يذكر لنا أن وجود الله أمر يقينى وأنه حقيقة
معروفة فى كل المصنوع وهو أساس آمال البشر ودعامة الأخلاق
والاجتماع فيحسن أن تأمل فيها فى كل لحظة من لحظات حياتنا . ذكر هيوم
كل هذا ليحجب الكتاب إلنا وليكنه لا يفوته أن يحدرننا عما عسى أن

(١) Burton : Vol. I p. 332
(٢) أظن الخطاب س ١٧٦١ من هذا الكتاب

نلقاه فى فهمه من مثقفة . فثمة مسائل عن طبيعة الله حافلة بالشك ، ولم
يجل العقل البشرى بعد إلى يقين عنها ولكنها موضوعات شائقة بحيث
لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من البحث الدائب فيها ولو أننا لا نخلص من
أدنى إيماننا بغير الشك والتناقض والافتقار إلى اليقين .

٨ ثمة دافعان بلهتان هيوم هذا الموقف عن طبيعة الله : أحدهما
الشفق الانسانى ، فلما نستطيع أن نتكبح أنفسنا عن البحث فى الله
وما عسى أن يكون ؛ ومع أننا لا نصل إلى نتائج شافية بهذا الصدد ،
نستشعر ضرورة الاعتقاد بشيء فى هذا الموضوع . ولكننا نلتقى فى
أنفسنا بضرورة من نوع آخر : إن ما نتقده فيه أياً كان يلزم أن يكون
متوافقاً مع نفسه أو متوافقاً مع معتقداتنا الأخرى ، حتى يصير شيئاً
لاشك فيه . وإذا لم نجد وضاحتنا كذا نعلم أن إليه فينبئ لنا أن نترفع
عن ارتكاب وزير تناسب عليه . وهذا بالضبط هو موقف الشاك
الصادق فى صراحة ضد الدجماطيقى .

هذان الطريقتان فى الاستجابة للواقع الدينى جعل هيوم من (فيلون)
(كياشس) مثليين لما ، فالنصيصتان معاً كما ذكرنا تميزان عن فكره
الخاص ومما فى النهاية فيلسوفان قبل كل شيء . وإن هيوم لتوافق أن
يحملنا نلاحظ أن الشخصيتين تتسبان إليه حتى أنه فى الصفحات الأخيرة
من الكتاب (١) يتخلى عن تنكزه فى ثياب (بامفيلوس) ويتحدث عن
نفسه إلى القارىء حديثاً مباشراً . فليس ثمة ما يدعو إلى العجب إذا
نحن رأينا هيوم يقف مرة مع الدجماطيقى وأخرى مع الشاك يتخذ

[١] أظن هاتين المؤلفات فى الفصل الثانى عشر من المحاورات .

من هذا بطلاً جديداً ومن ذاك بطلاً جديداً آخر ، فكلامهما يمثل طرقتا سليمة
فى النظر إلى الأفياء . فمتدا تشر بأزمة فكرية تلح على المشاكل
المنطقية وتفرق فى الأمور الشككية ومع هذا فمن نواصل التفكير
والاعتقاد ونساق غالباً وراء نوازع طبيعتنا . هذه المراحل التي يقطعها
هيوم نفسه فى تفكيره فينتقل من شك إلى اعتقاد تنطبع فى شخصيتي
(فيلون) و(كياشس) . أما (دميان) فيقف إلى جانب (فيلون)
ولا يبدو دوره إثارة جدال الحوار إلى تناول ما يصره من اعتراضات
وشكوك .

المترجم
محمد فتحي الشنيطى

القاهرة - إبريل ١٩٥٦

خطاب

من (باقيلوس) إلى (هرميوس)

لقد لوحظ يا هرميوس (هرميوس) أن الفلاسفة القدماء وإن كانوا قد صاغوا معظم تعاليمهم في صيغة الحوار إلا أن العمل بهذا المنهج في التأليف قلَّ اتباعه في المصور الأخيرة ، وندر نجاحه بين أيدي من حاولوه . وإن الحجة المضبوطة المتسقة حقاً - وهذا ما نتفطره الآن من بائني الفلسفة - لتدفع الإنسان بالطبع إلى طريق منهجي مهذب يستطيع أن يشرح فيه شرحاً مباشراً وبدون تمهيد ، النقطة التي تهدف إليها ، ومن ثم لا يلبث أن يستلزم الأدلة التي تقوم عليها ، ولا يكاد يبدو طبيعياً أن نسوق مذهباً في محاوره . فبينما يروم كاتب المحاوره بدوله عن الأسلوب المباشر في الإنشاء أن يشرح جوهر أكثر طلاقة وحرية لمؤلفه بحيث يظن المؤلف والقارئ - فتراهم خليقاً أن يتدفع إلى مضايقة أسوأ في المباشرة مشرعاً بروح الصحة المؤلفة فيلج الموضوعات المتنوعة ويحفظ التوازن اللازم بين المتحاورين ، فكثيراً ما يستفد وقتاً طويلاً جداً في التمهيدات والانتقالات بحيث يصعب أن يرى القارئ نفسه قد وجد في نعم المحاوره مجبها عوضاً عن النظام والابحاز والدقة التي نحس بها من أبحاثها .

ومع ذلك فهناك بعض موضوعات توافها كتاباً المحاوره ، وما برحت مفضلة فيها على المنهج المباشر البسيط في التأليف .

فإن أية نقطة بالغة الوضوح في نظرية بحيث أنها قلنا فتشع باب الجدل ، ولكنها في عين الوقت بالغة الأهمية بحيث أنها لا يمكن في أغلب الأحيان أن تتطوع في الذهن ، تبدو مفتقرة إلى منج ما تناوينا قد تعدل فيه طرافة الطريقة ما في الموضوع من عسر ، وقد تذكر التعاليم جوية الحوار ، وقد يظهر تنوع الأضواء ، مثلاً في الشخصيات والخصائص غالياً من الإملال والتكرار .

ومن جهة أخرى إذا قيَّض لمألة من مسائل الفلسفة بالغة في غموضها وعدم يقينها ، حتى أن العقل البشري لا يستطيع أن يصل فيها إلى قرار عديد ، إذا قيَّض لهذه المسألة أن تعالج فإنها تبدو مؤدية بنا بالطبع إلى أسلوب الحوار والحديث . وقد يقع العقلاء من الناس في الاختلاف في المواطن التي لا يستطيعون الوصول فيها إلى إجابة قاطعة ، يد أن المشاعر المتصارعة وأن لم تأت برأى قاطع لتبنا الذمة بحية . وإذا كان الموضوع غريباً شاقاً خف بنا الكتاب على نحو ما إلى حياة اجتماعية ، ووجد أعظم وأصنى لذتين هما الدراسة والاجتماع .

ولحسن الطالع تتوفر هذه الملائمات جميعاً في موضوع الدين الطبيعي . فآية حقيقة غاية في الوضوح واليقين مثل وجود إله ! وهي

التي نمرقها أجهل المصور وجهدت أعظم المبررات طاعة إلى إيجاد أدلة وحجج جديدة عليها ؟ أية حقيقة أم من هذه وهي أساس آمالنا جميعاً وأوتق دعامة للأخلاق وأرسخ عتد للمجتمع ، والمبدأ الوحيد الذي لا ينبغي عن أنكارنا وتأملاتنا لحظة ؟ ولكن أي مسائل غامضة تنطق بطبيعة ذلك الموجود الإلهي ، بصقائه ونواميسه وخطته في العناية ؟ أي مسائل غامضة تواجها حين نتناول هذه الحقيقة الواضحة الهامة ؟ ولقد نمرق ضمت هذه المسائل دائماً لاختلافات الناس ، ولم يصل العقل البشري إلى يقين عنها ، ولكنها موضوعات شائقة لا نستطيع أن نكبح أنفسنا إزاءها عن البحث الثائب فيها ، ولو أننا لا نخلص من أدق أبحاثنا بغير شك والتناقض وعدم اليقين .

وقد تهيأت لي أخيراً الفرصة للملاحظة هذا وأنا أتهنى جانباً من فصل الضيف مع (كليانس) وأشهد عاداته مع (فيلون) و (دميان) تلك المحادثات التي حدثت عنها من قبل حديثاً غير مستكمل . وقد ذكرت لي إذذاك أن الحديث قد أثار قلقك وأنه ينبغي لي أن أعود فأفصل استدلالهم تفصيلاً دقيقاً وأعرض تلك المذاهب المختلفة التي تقدموا بها عن موضوع دقيق كوضوح الدين الطبيعي . وقد راء التباين الملحوظ في شخصياتهم حين كنت تقابل بين اتجاه (كليانس) الفلسفي الدقيق ، وبين شك (فيلون) اللاهي ، أو تقارن موقف واحد منهما بما يظهر في موقف دميان من الجرد وعدم المرونة ، زاد هذا التباين في إثارة انتباهك . ولقد حدا بي شياي أن أكون

مستمعاً وحسب لمباحثهم . وبفضل التلخيص الطبيعي في ذلك الفصل الباكر من الحياة انطبعت في ذاكرتي السلسلة الكاملة المرتبطة للحجج انطباعاً عميقاً حتى لأمل إلا أغفل في روايتي جزءاً هاماً منها أخطئ فيه .

آخر من موضوعات البحث للاذ هذا الموضوع كله بهذه النظريات اللاهوتية وعاد منها بأعظم قوة وسلطان. وسنعمل عندما يفرط عقد الجماعة ما إذا كان شكك من الإطلاق والوثاقة بالحد الذي نزم . سترى حينئذ أخرج من الباب أم من النافذة؟ وهل تشكك حقاً في أن لجسك جاذبية أو يمكن أن يرضى إذا سقط طبقاً للرأى الضعيف المستند من حواسنا المعالطة ومن تجربتنا الأشد مغالطة . وأحسب يا (ديان) أن هذا الاعتبار قد ينبج في تخفيف حقدنا على هذه الشيعة المهازلة من الشكك ، فهم إذا كانوا جادين لن ينعوا العالم بشكوكهم ومكابرهم ومساجلاتهم . وأما إذا كانوا لاهين وحسب ، فقد يكونون مزاحاً أضراراً ولكن ليس في مقدورهم قط أن يكونوا خطرين سواء على الدولة أو على الفلسفة أو الدين .

[تم أرفف (سليمان) :]

وفي الحق يا فيلون يبدو يتيقن أن الإنسان وإن يكن في احتياج مواجه حجب تفكير عفيف في العديد من نقائص العقل وهنائه ، قد ينفذ نيدا تاماً كل اعتقاد ورأى ، فانه يستحيل عليه البقاء في هذا الشك المطبق ، بل ويستحيل عليه أن يصرح به في سلوكه لضعف سماعات . فالموضوعات الخارجية تنضبط عليه ، والمواقف تلج عليه فينبذ تأمله الفلسفي الحزين ، بل وإن يكون في مقدور أقصى عصف في مواجه الخاص أن يبقى وقتاً ما على مظهر الشك البائس ، ثم لا يسيب يفرض على نفسه مثل هذا العنف ؟ هذه نقطة يستحيل عليه استجابة تامة أن

يشتم نفسه فيها اقتناعاً برأى مبادئه الشكية . وعلى ذلك - قبل الجلة - ليس ثمة شيء أدعى إلى السخر من مبادئ البيرونيين القديس ، إذا كانوا قد حاولوا حقاً - كما ادعى - أن يبسطوا ببساطة شاملاً حين الشك الذي تصلوه من خطب مدارسهم الحماسية ونظم هلمهم أن يحصروا أنفسهم في نطاقه .

في هذه النظرة يتبدى تشابه عظيم بين شجتي الرواقين^(١) والبيرونيين^(٢) وإن كانوا خصوماً دائمين ، وكناهما تبدو مرتكزة على هذه القاعدة المعالطة وهي أن ما يستطيع امرؤ أن يتجزه أحياناً وفي بعض المواقف يستتبع أن يتجزه دائماً وفي كل موقف . فعندما ترقى النفس بالتأملات الرواقية إلى حية رفيعة لفضيلة وتسلو في قوة بلون من ألوان الشرف أو الخير الجماعي فإن أقصى ألم وهناء بدنى لن يقهراً ذلك الاحساس الزفيف بالواجب ، وربما كان من الممكن بفعل هذا الاحساس أن نبسم وتنبج في معمة العذاب ، لأن كان الحال كذلك

- (١) أنبا المدرسة الرواقية ديون (سنة ٣١٢ ق م) والرواقيون ماديون على منحنى مرقس . ومثل مدعهم في الأخلاق أن الإنسان يضع الأساس التي يسر عليها في سلوكه على ضوء مبادئه الأساسية ، والطبيعية هي التي غرست فيه هذه المبادئ . وفيقول الأول حب البقاء (لا الله كادس الأيقورون) الذي يهده إلى الخلقية . ما يوافقه ويحفظ كياناً وما يفاده ويلاقيه ، ادمج إلى الفلسفة الرواقية . (الترجم) .
- (٢) نسبة إلى بيرون (ولد ٣٦٠ ق م) أي الشكوك اليونان وهو وإتباعه يشكرون معرفة الأشياء في حقائقها ومن ثم يتوقفون عن إصدار أحكام مطلقة عنها . (الترجم) .

وفي الحقيقة لكان الأخرى بالفيلسوف في مدرسته بل وفي مضدعه أن يدفع بنفسه إلى مثل هذه الحمية وأن يطبق في خياله أحد ألم وألجج سادت يمكن تصوره . ولكن كيف يطبق هذه الحمية نفسها ؟ إن توتر نفسه لبقاخي فلا يستطيع الاستجابة للذة ، فالشاكل هذه والكوارث تنقض عليه بنة . وينحدر الفيلسوف تدريجياً إلى أحد العوام .

(فيلون) :- إنني لاسلم بموازنتك بين الرواقين والشكك ، ولكن يجعل بك في الوقت نفسه أن تلاحظ أن الدهن في الرواقية وإن يكن يستطيع أن يطبق أسس خواطر الفلسفة يد أنه حين يتحدر إلى ما هو أدنى لا يفتأ يحفظاً بشيء من موقفه السابق ، وتظهر آثار تفكير الرواق في سلوكه في الحياة العامة وفي سياق أنفاله .

وقد زودتنا المدارس القديمة وعلى الأخص مدرسة زينون^(١) بتأديج لفضيلة والصبر تبدو باعثة للدمعة في الأزمنة الحاضرة .

هـ هبت كلها الحكمة والفلسفة الباطلة يسد أن في وسعها يسمر لاذ أن ترقيا - لحظة - الألم أو الضيق وتوقظا الرجا والراحم أو تدججا الصدر التامى بالصبر المنيد كأنه الصاب الصلب^(٢) .

- (١) ديون الرواق (ولد سنة ٣٤٢ ق م) مدينة كبير . غنى إلى أينا ودرس فلسفة السكيتين والبيرونيين برن تأثره بهما سقراط . إننا مدرسة في دواق حوالى ٣٠٠ ق م . (الترجم) .

(٢) الفردوس المودع الشاعر ملقن - Paradise Lost 11 (الزوف) .

والأمر كذلك إذا ألف المرء اعتبارات شكية منصبة على عدم يقين العقل وضيق حدوده فإن ينسأها نسبياً تاماً عندما يتجه بفكره إلى موضوعات أخرى ولكننا سنجد في جميع مبادئه الفلسفية واستدلالة - ولا أقول في سلوكه العام - مختلفاً عن أولئك الذين لم يصوغوا ألبنة آراء في هذه الناحية ، أو الذين استمذبروا مشاعر أنصب عن العقل البشري .

وأياً كان المدى الذي يدفع إليه أى شخص مبادئه التأملية في الشك فائق أدنى أنه يشتم عليه أن يفعل ويصبر ويتحدث مثلاً بفعل غيره من الناس وليس ملزماً أن يبدل بسبب سلوكه هذا اللهم إلا الضرورة المعلقة التي يخضع لها في قيامه بهذه الأعمال ، وإذا حدث أن انطلق بتأملاته إلى أبعد مما تقرره عليه هذه الضرورة وتفلسف في موضوعات طيعية أو موضوعات أخلاقية لاستبائكه لذة خاصة ورضى خاص يجدهما في انتاج هذا التبع . زد على هذا أنه يرى أن كل فرد مقسور - حتى في الحياة العامة - على أن يصيب خطأ قل أو زاد من الفلسفة وأنها في طفولتنا الباكرة تقدم باطراد في صياغة مبادئ أهم للسلوك والاستدلال بحيث أننا نجعل مبادئنا على الدوام أهم وأحقل بالمفهوم كلما اتسع مانكسبه بالتجربة وقوى خطانا من العقل ، وإن ما ندعوه فلسفة لمع عملية منظمة متسقة من النوع نفسه . إن التفلسف في مثل هذه الموضوعات لا يختلف في الجوهر عن الاستدلال المنصب على الحياة العامة ، ولنا أن تتوقع لفلسفتنا رسوخاً أعظم إن لم تتوقع خطأ أعظم

من الحقيقة كلما كان منهجنا في البحث أدق وأكثر تشككاً.

ولكننا عند ما نتخطى بنظرنا الشئون البشرية وصفات الأجسام المحيطة بنا، لننقلنا بأملاطنا إلى الأزل والأبد قبل وبعد الوضع الخالي للأشياء، إلى خلق العالم وتكوينه إلى وجود الأرواح وصفاتها، إلى قوى روح كليه وعملاتها، روح كلية وجودها لا بدء له ولا نهاية، شاملة القوة عامة بكل شيء ثابتة لا متناهية لا مدركة - يلزم أن نأى بعيداً عن أبسط ميل للشك لا نلزم به ومن ثم فهو بعيد عن متناول ملكاتنا. وما دما نقصر تأملاتنا على التجارة أو الأخلاق أو السياسة أو النقد فحين نستعين - كل لحظة - بالدوق السليم والتجربة الذين يشدان أزر تناغمها الفلسفية ويمحوان - محو جزئياً على الأقل - الرية التي قد تخالفتنا في كل استدلال بالغ في دقته ورقته. ولكننا نقف هذه الميزة في الاستدلالات اللاهوتية، فينبأ نقف فيها بموضوعات يجب أن نقررها نهجها في عين الوقت أوسع من أن نحيط بها وأنشئ قبل غيرها بأن يألفها إدراكنا كل الألف. نحن فيها أشبه بأجانب في بلد غريب يرامى لهم كل شيء مريباً وهم - كل لحظة - في خطر من أن يبتدوا على قرابين وعادات شعب يعيشون بينه ويتحدثون معه. ولتستلن ندرى إلى أي حد ينبغي لنا أن نقف بمنهجنا المجتذلة في الاستدلال - في مثل هذا الموضوع - ما دما نحن في الحياة العامة وفي ذلك المجال الضيق المواتم لها بوجه خاص، لا نستطيع أن نقصرها ونفاد في استخدامها انقياداً تاماً بعرب من الفريضة أو الضرورة.

ويُدعى الشكك جميعاً أن العقل - إذا اعتبر اعتباراً مجرداً - يولد من الحجة القابلة ما ينافقه، وأتينا لاستطيع البتة أن نحفظ اقتناع أو استيقان ما في موضوع ما لم تكن الاستدلالات النفسية بالغة في دقتها ورقتها حتى لتصبح أن تعدل الحجة المستمدة من الحواس والتجربة وهي حجة أصلب عوداً وأقرب إلى الطبيعة. ولكن من الخلل أنه حينما تفقد حججنا هذه الميزة وتبعد عن الحياة العامة بتبادل معها أصنى شك ويكون في وسعنا أن يواجهها ويعدلها. ولن يكون لواحد منهما وزن أكبر من الآخر، ونمتدحجب على الذهن أن يستقر معلقاً بينهما وهذا التعلق أو التوازن هو بعينه ظفر الشك.

× (كلياتس): ولكنني (يا فيلون) لاحظت فيما يتصل بك وجميع الشكك التاملين أن نظريتك وعملك يلمان من التشكك في أعنى النقط ما تعلقناه في سلوك الحياة العامة. فحينما أسفر الدليل تحكك تبته مضجياً عن شكك الزهوم واستطيع أن ألاحظ أيضاً أن بعض أفراد شعبك بلغوا من الترشع مبلغ أولئك الذين تقدموا بتعاليم أعظم عن اليقين والاستيقان. وفي الحق أليس يدعو إلى الضخمة أمرؤ أسمى أطراح تفسير نيوتن^(١) لظاهرة قوس قزح الرائعة لاني - إلا لأن هذا التفسير يحلل أشعة الضوء تحليلاً دقيقاً، وهو موضوع - لسرك - بالغ في

(١) نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) عالم فيزيائي في الطبيعة والرياضة والفلك شهيد اكتشافه قوانين الجاذبية وتفسير الضوء، (الترجم)

دقة على القيم البشرية ١٤ وماذا أنت قائل في شخص لم يكن لديه شيء جزئ يطق عليه حجة (كوبريتيكوس)^(١) و (جاليليو)^(٢) عن حركة الأرض فامتنع عن التصديق بها استناداً إلى ذلك المبدأ العام وهو أن هذه الموضوعات أشرف وأبعد من أن يفسرها عقل البشر الضيق المغالط ؟

وهناك كذلك - كما لاحظت جيداً - نوع من الشك القفل الجاهل يجعل السوقة بوجه عام ينظرون نظرة نفرض إلى كل ما لا يفهمونه في يسر وينفذون كل مبدأ يتطلب استدلالاً ناجحاً للتدليل عليه وإقراره. هذا الضرب للشك مهلك للبرقة لا للدين إذ ترى أولئك الذين صرحوا به أعظم تصريح كثيراً ما يتخصون بتصديقهم لاحقائق الاعتقاد بالله والدين الطبيعي وحسب بل وأسخط العقائد التي زينتها لهم الخرافة التقليدية. فهم يمتدحون اعتقاداً راسخاً بالساحرات وإن لم يمتدحوا أو يؤيدوا أبسط قضية (لاقليدس). ولكن الشكك المنفلسين الخلف يتقون في تافه على عكس هذا. فهم يذعنون بمباحثهم إلى أعنى جوارب العلم ويسارهم تصديقهم في كل خطوة متناسباً مع الدليل الذي

يلتقون به، بل انهم يعطرون إلى التسليم بأن أعنى الموضوعات وأتاما هي تلك التي شرحتها الفلسفة غير شرح. فاضواء قد حلت في الحقيقة وكشف النظام الحقيقي للجموعة الشمسية وتقرر، ولكن تصفية الأبدان بالطعام لا تزال شيئاً غامضاً لا تفسير له، والتحام أجزاء المادة ما برح بعيداً عن الفهم. ومن ثم فؤلاء الشكك يعطرون في كل مسألة من المسائل إلى النظر في كل بيئة جزئية على حدة ويعملون تصديقهم زهونا بدرجة الوحوش الدقيقة التي تتراءى لهم. هذا هو علمهم في كل علم طبيعي أو رياضي أو خلقي أو سياسي، وانني لا تسامح لم لا يكون علمهم كذلك في العلم اللاهوتي والدين؟ لم يجب أن تنسى فيه نتائج من هذا القبيل استناداً إلى الافتراض العام بأفقار العقل البشري، أقول تنسى فيه هذه النتائج دون أية مناقشة خاصة للدليل؟ أليس مثل هذا المسلك غير المتعادل دليلاً بينا على النفرض والحوى ؟

أنت تقول إن حواسنا مغالطة وفهمنا خاطيء وأفكارنا حتى عن أكثر الموضوعات آلفة، من امتداد وديمومة وحركة مفصصة بالقبس والتناقض، وأنت تتحدث أن أحل هذه الاشكالات أو أفر بالتناظر الذي تمسككشفه بينها. وليست لي القدرة على مثل هذه المهمة العظيمة وليس لدى فراغ لها، إنني لأعتبرها أمراً ثانوياً فإن ملكك الخاص في كل ملابسة يدحض مبادئك ويكشف اعتيادك الراسخ على كل القواعد المسلم بها في العلم والأخلاق والنقطة والسلوك.

(١) كوبريتيكوس (١٤٧٧ - ١٥٤٣) فلكي بولوني أثبت أن الكواكب تدور دورين أحداً حول نفسها والآخرى حول الشمس، فطبت نظريته نظام الكون رأساً على عقب واعتبرها الإلها حافية للعالم الذين (الترجم)
(٢) جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) رياضي وفلكي إيطالي ولد في فيزا وجير المؤسس الفيني قلم التجريبي. له اكتشافات عديدة في الطبيعة والفلك. (الترجم)

ولن أسلم إليه رأى بالغ في جفوته مثل رأى كاتب مشهور (١) حين يقول أن الشكك ليسوا شيعة من الفلاسفة هم وحسب عصابة من الكذابين . ومما يمكن من شيء فقد أقرر - وأمل ألا يكون في ذلك اسامة - أنهم شيعة هازلين أو مؤرخين ، ولكن رأى أنى عندما أحس من نفسي ميلا إلى الطرب والهوى فساوثر يقينا أن تكون تسليتي أقل عناء وحشة . إن الملهة أو الرواية أو على الأكثر التاريخ تبدو أقرب إلى طبيعة الترويح من هذه الدقائق والتجريدات الميتافيزيقية .

وإن الشاك لعمل عينا على التفرقة بين العلم والحياة العامة أو بين علم وآخر . فالخروج المستخدمة فيها جميعا ، إذا كانت صحيحة ، فهي من طبيعة متناقضة ، وهي في القوة والوضوح سواء ، فإذا كان ثمة خللاق بينها نجد أن التفوق بنحاز انحيازاً تاماً إلى جانب اللاهوت أو الدين

(١) L' Art de Penser [المؤلف]

Antoine Arnauld : La Logique ou L' art de Penser.

أنتوان أرنول : المنطق وفن التفكير . وقد نشر سنة ١٦٦٢ والفترة التي يشير إليها هيوم هناك في المجلد الأول ص ٢٦ من طبعة سنة ١٨٤٢ ، وقد جاء فيها : « إن أحمدا لم يشك قط في وجود أرض وحش وفر ، وفي أن السهل أكبر من جزئه . وإذا كان في يوم الزم أن يلفظ بشيء يشكك في ذلك في استعانة الإنسان أن يكذب ولكن ليس في استطاعته أن يتصل بغيره على الكذب كذلك . ومن ثم نجد أن التبريرية ليست شيعة نوم . يؤمنون بما يجهلون ، بل هي شيعة كفاين » .

أخر ص ١٢٧ طبعة كيمب Kemp Smith له وراثة - لندن سنة ١٩٤٧ [الترجمة]

الطبيعي . فكثير من مبادئ الميكانيكا مؤسسة على استدلال بالغ في غرضه ، ومع ذلك فليس ثمة شخص يدعي المشاركة في العلم ، بل وليس ثمة شاك متأمل ، لا واحد من هذين يدعي أنه يلو أقل شك بحددها . فالمذهب الكوبرنيكي يشهد على أكثر المقارقات اجتماعاً للدمغة وأعظمها تعارفا مع تصوراتنا الشخصية والمظاهر وحواصنا نفسها ، ومع ذلك فإن الزهبا أنفسهم مضطرون إلى الاقتلاع عن معارضتها . وهل يقع (فيلون) وله مثل تلك العبقرية المرة - في مثل تلك الشكوك السوفية الفاتحة ، التي تتصل بالفرض الديني المؤسّر على أبسط المخرج وأجلاها ، والذي يجد إلى ذهن الإنسان مدخلا جديسيور ويصادف منه قبولا ، إلا أن تموقعه عقبات مفتوحة ؟

[وأردف يقول وهو يظن إلى : ديمان]

وهنا نلاحظ ملاحظة لطيفة غريبة في تاريخ العلوم . فبعد اتحاد الفلسفة بالدين الشعبي عند أول توطد المسيحية لم يكن شيء آلف بين معلى الدين من الخطب الحماسية ضد العقل والحواس وعند كل مبدأ مستمد من التنقيح والبحث البشري حسب . وقد تبنى الآباء كل موضوعات الأكاديميات القديمة ، ومن ثم دأبت إلى تصور عديدة في كل مدرسة وفي كل منبر في كافة أرجاء العالم المسيحي . ولقد احتضن المصلحون مبادئ الاستدلال عنها أو بالأحرى مبادئ الخطأية ، وأن كل ضروب الشك على روعة الإيمان قد شابهها على التأكد بعض ضروب

القدح النقيضة في العقل الطبيعي . وثمة أسقف (١) مشهور من المجمع الروماني ، وهو رجل على أعظم قسط من سعة الثقافة وهو الذي كتب « برهانا على المسيحية » قد ألب كذلك رسالة تنطوي على مكابرات أجراً البروتية جميعاً وأشدّها عناداً . ويسدو أن لوك (٢) كان أول مسيحي خاطب بصراحة فزع أن الإيمان ليس إلا ضرباً من العقل وأن الدين لا يبدو أن يكون فرعاً من الفلسفة وأن ثمة سلسلة من الحجج ماثلة لتلك السلسلة التي توطد أي حقيقة في الأخلاق أو السياسة أو الفيزيقا تستخدم دائماً في استكشاف مبادئ اللاهوت الطبيعي ، منه والموحي به . وإن عيب (بيل) (٣) وغيره من الإجراء بالشك الفلسفي عند الآباء وأوائل المصلحين زاد في انتشار إحساس السيد لوك البصير . وقد اعترف به الآن على نحو ما كل ادعاء الاستدلال والفلسفة ، ألا وهو

(١) Mons Huet [المؤلف]

يشير هو إلى المؤرخ بيتر دانييل هويت Peter Daniel Huet ١٧٢١-١٦٣٠ والإشارة هنا إلى كتابه [رسالة في شك العقل البشري] وقد نشر بعد موته عامه سنة ١٧٢٣ [الترجمة]

(٢) جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ . فيلسوف إنجليزي من أعلام المذهب التجريبي . كان أول من حول وجه معرفته في صورة العلم المنطوق ، وذلك في كتابه [مدال في العقل البشري] وبعد هذا الكتاب بقي أول بحث علمي منظم يتناول بالتحقيق والدرس أصل المعرفة ومصادرها ودرجة اليقين فيها . وقد طرح لوك جانباً نظرية الانبعاث النظرية مبنية على التجربة باعتبارها المنهج الأول لمعرفة . (الترجمة)

١٦٣٢-١٧٠٦ كاتب مفكر فرنسي . صاحب القاموس الفلسفي وحنا

أن الملحد والشاك مترادفان تقريباً . ولما كان يقينا أن ليس ثمة إنسان يجد حين يصرح بالمبدأ الأخير ، فإني لأرجو ميثجا أن يكون هناك عدد قليل يأخذ في جد بالمبدأ الأول .

(فيلون) : - ألا تذكر قوله (لورد يكون) الزائفة في هذا البحث ؟

(كياش) : هي أن القليل من الفلسفة يجعل الإنسان ملحداً ، والكثير منها يشوب به إلى الدين .

(فيلون) : - هذه أيضا ملاحظة صيرة جدا ولكن ما يلفت نظري الآن هو فكرة أخرى لاحظتها فيها هذا الفيلسوف العظيم - بعد أن نوه باللاحق (داوود) الذي أسر القول بأن ليس ثمة إله - أن للبلحدين في أيماننا قسما مزدوجا من الخفاة : إذ أنهم لا يقتضرون على الأسرار في اقتديتهم بأن ليس هناك إله بل تنفوس شفاههم بهذا الإلحاد أيضا . فهم من ثم موصوفون بزيد من الطيش والتطير ، وعدى أن مثل هؤلاء الناس - وإن كانوا على قدر عظيم من الجِد - لا يستطيعون أن يكونوا على جانب عظيم من الرهبة .

ولكنك وإن جاز لك أن تسلك في عداد هذه الطائفة من الحق ، لا أستطيع أن أمتنع نفسي من ذكر ملاحظة سمعت لي من تاريخ الشك الديني واللاهوتي الذي أمتنتا به . يبدو لي أن هناك علامة قوية من فن الكتابة في أطوار هذا التاريخ . ففي غضون الصور الجاهلة - كذلك الصور التي أعقبت انحلال المدارس القديمة - أدرك الكهان أن

الإلهاد والزندقة من أى نوع كانت يمكن أن تنجم بحسب عن التفصّل الموهوم في الآراء المسلم بها وعن اعتقاد بأن العقل البشرى ند لكل شيء . ثم كان للتعليم إذ ذاك نفوذ القوى على أذهان الناس ، وكان يكاد يعدل في القوة تلك الإيهامات الآتية من الحواس والقيم العام والتي يلزم على أعظم الشكك تصميم أن يعلم بأنه مبرها . أما الآن - وقد ناقص نفوذ التعليم إلى حد بعيد وتعلم الناس من انفساح سبل التجارة في العالم أن يقارنوا المبادئ الشعبية في أهم وعصور مختلفة - فقد بدأ أساتذة اللاهوت هندنا مذهبهم في الفلسفة بأسره ، وأضحوا يتحدّثون بلغة الرواقين والأفلاطونيين والمثاليين لابلغة البيرونيين والأكاديميين . ولئن نزعنا الثقة من العقل البشرى كما بقي لدينا الآن أى مبدأ آخر يهدينا إلى الدين . وعلى ذلك فالشكك في عصر والدجاغيتيون في عصر آخر - أيا كان مقصد هؤلاء السادة الأفاضل - إذا وهبناهم روبة يشرفون منها على الجنس البشرى لرأيانهم على ثقة من اتخاذها مبدأهم المفضل وعقيدتهم الراضية .

(كياش) : - أنه لمن الطبيعي جدا للناس أن يحتضنوا هذه المبادئ التي يرون أنهم يستطيعون أن يدعوا بها خبر ذباد عن مذهبهم ، ولنا في حاجة إلى الالتجاء إلى الكهانة لفسر هذه المحاولة المغفولة جدا . ومن الأكيد أن ليس ثمة ما يمدنا بافتراض أقوى - ألا وهو أن أية مجموعة من المبادئ حقة وينبغي احتضانها - من أن تلاحظ أنها تتجه إلى تأييد الدين الحقيقي وتعين على هزيمة مكابرات الملحدين والأحرار والمفكرين الأحرار من جميع النحل .

الفصل الثاني

(دميان) : - لا بد لي من القول ألا شيء أبعد لدمشق من العترة الذي عرضت فيه هذه الحجة . ففي وسع المرء أن يظن من تبرة حديثك أنك كنت تعلم بوجود الله - على تقيض مكابرات الملحدين والزنادقة - واضطرت بذلك أن تصير بطلا لهذا المبدأ الأسامي لكل دين ، ولكن هذا - فيما أرجو - ليس من موضوعنا في شيء . إنني لاذهب إلى القول بأن ليس ثمة إنسان أو على الأقل ليس ثمة إنسان سليم الذوق - قد شك شكاً جاداً في حقيقة بديهية بالغة اليقين كالمسألة ليست تختص بوجود الله بل بطبيعته ، وإنني لاأرر أن هذه الطبيعة كانت دائماً مستقلة على الفهم ، مجهولة لنا ، لنقاص في فهمنا البشري . إن جوهر ذلك الله هو السامي وصفاته وطريقه وجوده وطبيعته بقائه هذه وكل جوتة تختص بهذا الموجود الإلهي عامنة على الناس وكما كنا متعلقات متناهية متعينة عبياء فنيين لنا أن نتواضع في - صبرته الرفيعة ، وإذا نشهر بقائنا نشفق في صمت كالآية اللامتناهية التي لم ترها حين من قبل ولم تسمع بها أذن ولم تدخل قلب بشر فيفقهها . فهي مغلفة في سحابة كثيفة دون طلع البشر ، وأنه لمن الدنس أن نحاول اختراق هذه المهبئات المقدسة . ويحيى التهور في التجسس على طبيعته ووجوده ونواميسه وصفاته بعد الإلهاد في إنكار وجوده . ولكن لا يسبق إلى

ذلك أن نقول أنها قد فافت فلسفي ، سأدعم رأي - إذا كانت يعوزه الدم - يستعظم جدا . وفي وسعي أن أستشهد بأساتذة اللاهوت منذ تأسيس المسيحية على التقريب - أولئك الذين عاجلوا هذا الموضوع أو أى موضوع لاهوتي آخر - ولكنني سأكتفي الآن بموضوع مشهور إن في التقوى أو في الفلسفة - وقد عبر عن ذلك الأب (مالبرانش) (١) - على ما أذكر - حين يقول : ينبغي للمرء ألا يغالي فيدعوا لله روحاً - لكي يعبر تغييراً إيجابياً عما هو عليه - ولكن يبين كذلك أنه ليس مادة - . إنه لوجود كامل كاللا امتناهما وفي هذا لا نستطيع أن نتك . ولكن على نفس النحو الذي لا ينبغي لنا معه أن نتغلب بل وأن نقترضه جسمياً مكتسباً يبدن بشري كأدع جماعة المسيحية بجهة أن هذا الشكل أكل شكل ، كذلك لا ينبغي لنا أن نغال لروح الله أفكاراً أو أن يبين روحاً ثمة شها بجهة أننا لا نعرف شيئاً أكل من الذهن البشري . ينبغي لنا بالآخرى أن نعتقد أنه كما يشمل كالات المادة دون أن يكون مادياً فهو يشمل كذلك كالات أذهان المخلوقات دون أن يكون ذهنياً - على النحو الذي تصور عليه

(١) مالبرانش - [١٦٣٨ - ١٧١٥] . فيلسوف فرنسي من خصوم نظرية اللاسكار الفطرية لأنه يرى كل شيء قائماً في الله ويفسر كل شيء في الوجود من طريق الكشف . ويدعو إلى التناول وليم الأخلاق على أساس فطرته النظام . مؤلف كتاب [جنت عن الحياة] . (الترجم) .

الذهن - وأن اسمه الحقيقي هو الكائن أو عبارة أخرى وجود دون تحديد ، ألوجود كله الوجود اللامتناهي والكل . (١) (دميان) : بعد هذا السند العظيم الذي تقدمت به يا (فيلون) وبعد آلاف مثله يمكنك أن تقمدا يدولي من المضحك أن أمض (إليه) إحساس أو أبدي رضاي عن نظرتك . ولكن الثابت أنه حيثما عاج أناس عقلاء هذه الموضوعات لم تكن المسألة البتة هي مسألة وجود الله بل طبيعته بحسبه . والحقيقة الأولى - كما نلاحظ جيداً - بديهية لا نزاع فيها . ليس ثمة وجود لشيء دون الله ، والملة الأصلية لهذا العالم - أيا كانت - تدعوها (لما وتعلمه في تقوى كل ضرب من ضروب الكمال . وإن من يرتاب في هذه الحقيقة ليستحق كل عقاب يمكن أن يرى به الفلاسفة . أعني أعظم سخر وزرابة واستعجان . ولكن لما كان كل كمال كالاً نسبياً بالمرّة فلا ينبغي لنا البتة أن نخيل أننا نحيط بصفات هذا الموجود الإلهي أو أن نقرض بين كالاته وكالات مخلوق بشري عمالة أو تشابها . إن الحكمة والتفكير والتدبير والحرقة ، هذه نفسها بحق إله لأن هذه الكالات مبهمة بين الناس وليس لدينا لغة أخرى أو تصورات أخرى نستطيع أن نبرها عن عشقنا له . ولكن سحار أن نظن أن أفكارنا تطابق كالاته - على أية حال - أو أن ثمة تشابها بين إصفاته وبين كليات الناس . أنه ليسو متوراً لا متناهية عن نظرتنا المحدودة وفهمنا المحدود ، وهو أقرب أن يكون موضوعاً لتبدينا في المبدأ منه موضوعاً لمساجلتنا في المدارس .

(كياش) : - الحق ألا حاجة لنا إلى الاستعانة بذلك النك
للكتاب الذي نخصه أشد البغض لنصل إلى هذا القرار . إن أمكاننا
لا تمدو تجربتنا ، وليس لدينا أية تجربة من الصفات والعمليات الالهية .
ولا حاجة في إتيانهم هذا القياس . يمكنك أن تسوق الاستدلال
بنفسك ، وأنه ليلزم أن يأمل أن يصدق أن يتجمع في نتيجة واحدة
الاستدلال الصحيح والتفوي السليمة وتقران طبيعة الوجود الأسمى
للمسألة المشوقة المستقلة على الفهم .

[ثم قام موحا حديثه إلى (ديان)]

ولكن لا نستنفد وقتنا طويلا في الف حول الموضوع أو في
الاجابة على خطاب (فلون) الحاسية التقنية ، سأفسر في إيجاز كيف
أنصو هذا الموضوع أطل حول العالم ، تأمله برمته وتأمل كل جزء فيه ،
تجدد ليس إلا آلة عظيمة مقسمة إلى عدد لا متناه من آلات أصغر
تتبع بدورها تقنيات أخرى إلى درجة تجعل ما تستطيع الحواس
والمسلكت البشرية أن تتعمقه وتفسره . وهذه آلات متنوعة جميعا -
بل وأدق أجرائها أيضا - منظمة فيما بينها بدقة تفنن إلهيا آكل من قبض
له تأملها . أن التوافق الصحيح بين الوسائل والمآيات في جوانب الطبيعة
جميعا يشبه في دقة ثمرات الابتداع والتدبير والفكر والحكمة والذكاء
البشرية ، وإن كان يفوقها . وعلى ذلك ما دامت المحاولات تتشابه فيما
بينها فمن شأدي - طلقا لقواعد التمثيل جميعا - إلى الاستدلال على
أن الملل أيضا تشابه وأن صانه التقنية يشبه إلى حد ما ذهن البشر ،
وإن كان مردودا بملكات أوسع تتناسب مع جلال العمل الذي أنجزه .

هذه الحجة التبعية - وهذه الحجة وحدها - نرى من عين الوقت
على وجود إله وعلى مشابهته لذهن وذكاء بشريين .

(ديان) : - هذا لعلى سر في أن أذكر لك أنني منذ البداية لم
يسعني الرضى عن نتيجتك الخاصة بمشابهة الله للأسمى ، وما برحت
لا أستطيع أن أرضى عن المايير التي تحاول بها تقريرها . ماذا ؟ ليس
ثمة برهان على وجود إله ؟ وليس ثمة حجة مجردة ، ليس ثمة أدلة قلبية ؟
أهذه الحجة التي أح الفلاسفة عليها كثيرا كلها متناقضة وكها سفسطة اذن ،
وهل نستطيع أن نصل في هذا الموضوع إلى أبعد من التجربة والرجحان ؟
لن نقول إن في هذا خيانة لعهد الله ، ولكنك - على التأكيذ - تقيد
الملمعين بهذه الهراء المصطنعة فائدة لم يكن في وسعهم البتة الحصول
عليها بفعل الحجة والاستدلال حسب .

(فلون) : - ليس أهم ما يربيني في هذا الموضوع أن (كياش)
قد رد الجميع الدينية إلى التجربة ، بقدر ما ارتاب في أنها لا تبدو أيضا
أكثر هذا النوع لدان يقنا وثباتا . لقد لاحظنا آلاف آلاف المرات
أن قطعة الحجر تسقط والنار تحرق وأن الأرض صلبة ، وعند ما يمثل أى
مثل جديد من هذا القبيل نسوق - دون تردد - الاستدلال
المألوف . والتشابه المصنوع بين الحالات يحدثنا باستيقظ كامل عن حادثة
عماثلة فلا نرغب قط في شاهد أقوى ولا نبحث عنه . ولكن حينما
اتبعنا أثر إيماننا من تشابه الحالات فأنك تقصص انفسادنا انقاصا
سريا وربما انتهت بها إلى تمثيل ضعيف جدا مسلم بترصه للسطا وعدم
اليقين . فمن بعد تجربة دورة الدم في المحلوقات البشرية لا يبالغنا شك

في أنها تأخذ مجراها في (تيتوس) و (ماقبوس) ، ولكن من دورته
في الصفات والمسلكت لا يبدو الأمر افتراض كونها تأخذ مجراها في
الأناس والمحيطات الأخرى - وإن يكن فرضا قويا مستمدا من
التجربة . والاستدلال التمثيل أضعف حين نستدل على دورة المضادة
التيانية في الحضرات من تجربتنا بأن السم يدور في الحيوانات وقد
وجد يتجارب أدق أن أولئك الذين يهوا في مجلة هذا التمثيل الناقص
قد أخطأوا .

فأد رأينا يا (كياش) منزلا فإننا نستنتج في أعظم يقين أنه كان
له مهندس أو بناء ، لأن هذا هو على الدقة ضرب المثل الذي رأينا
بالتجربة أنه يتجم عن ذلك الضرب من العلة . ولكنك لن تذهب
بالتأكيذ إلى أن بين العالم وبين المنزل تشابها بحيث يمكننا بنفس اليقين
أن نستدل على علة مماثلة ، أو أن التمثيل هنا تام كامل . والاختلاف
من القوة بحيث أن غاية ما يمسك زحمة - هنا - تقعين أو تكون
أو افتراض خاص بعة مشابهة ، واترك لك أن ترى كيف يخلق الناس
هذا الزعم .

(كياش) : - سيبدأ تلقى جدا - بالتأكيذ - وسأستحق الملام
والإرابة لو سلمت بأن الأدلة على إله لا تمدو تقينا أو تمكينا . ولكن
هل التوافق التام بين الوسائل والمآيات في منزل أو في العالم بعض تشابه
مثيل ؟ أ كذلك تدبير الملل العانية ونظام كل جزء وتناسبه وترتيبه ؟
ألا إن درج السلم مصنوعة بحيث يسع الأقدام البشرية أن ترقاها في
يسر ، وهذا الاستدلال يقين مصوم . لقد صنعت الأقدام البشرية

أيضا للشي والصمود ، وأنا أسلم بأن هذا الاستدلال ليس يقينا على
انقضاء ما هنالك من تفاوت لاحظته أنت ، ولكن أينما هل من ثم اسم
افتراض أو تكون حسب .

(ديان) : [يصيح ضاحكا]

يا إلهي ، أين نص ؟ إن المناظير من الدين المتخصصين له يسلمون بأن
الأدلة على إله تقتصر إلى شاهد كامل . وأنت يا ديون - وقد ركنت
إلى عضدك في التدليل على الصمود المشوق في الطبيعة الإلهية - هل
توافق على حجج (كياش) هذه الجاهلة ؟ إذ أي اسم آخر يمكنني أن
أعطيه ههنا ؟ ولم أكنم انتقادي ما دامت مثل هذه المبادئ تعرض
أمام شاب بافع (كياشيلوس) مدعة يمثل هذا السند ؟

« (فلون) : يبدو أنك لا تدرك أنني أنا نقش (كياش) حاربه
وأمل في النهاية - بإظهاره على النتائج الخطيرة لعقائده - أن أوثب
إلى رأينا . ولكنني ألاحظ أن أشد ما يهيك هو الصور الذي اتقذه
الحجة البديهة ، وعند ما تجد تلك الحجة تمكاد تقلت من زمامك وتأتي
بمبدأ عنك تحسب أنها مستحقة حتى ليشق عليك التصديق بأنها مبرورة
في منوطا الحقيق . والآن - وإن كنت كثيرا ما أخاف في مواطن
أخرى مبادئ (كياش) الخطرة - ينبغي لي أن أسلم بأنه قد قدم
تلك الحجة تقديما صريحا ، وسأحاول أن أعرض عليك الموضوع بحيث
لن يبالغك أرتاب جديد فيها :

لو أن إنسانا تجرد من كل شيء بصره أو براه لعجز مجزأ تاما عن

أن يبين - إسناداً إلى أفكاره الخاصة بحسب - الصورة التي عليها العلم أو أن يؤثر بالتفضيل وصفاً للأشياء أو حالة لها على وضع أو حالة أخرى ، وإذ لم يكن شيء مما يتصوره بوضوح مستحلاً أو مستحلاً على تناقض ، فإن كل صورة واحدة في محله تكون على منزلة عائلة لمزلة الأخرى ولن يكون في مقدوره أن يبين أى سبب صحيح لكونه يتبع فكرة أو مذهبا ويقضى فكرة أو مذهبا آخر وكلاهما مستوى في الإمكان .

ثم : بعد أن يفتح عينه ويأمل العالم كما هو في الواقع يبدو من المنجمل عليه بأدى به أن يبين أنه أى حادثة أو أقل من ذلك أن يبين علة الأشياء جميعاً أو العالم . في وسعه أن يدبر عينه ، وفي وسعها أن تحده بتوقع لامتناه من التقارير والتصورات . كل هذه ممكنة ، ولكن لكونها تستوي في إمكانها ، لن يستطيع البتة أن يقدم من نفسه تفسيرا لتفصيل واحد منها على سائرهما ، في وسع التجربة وحدها أن تظهره على العلة الحقة لأية ظاهرة .

والآن يا (دميان) يقرب على هذا المسبب في الاستدلال - وقد سلم بهذا (كلياتش) صحتاً - أن النظام والترتيب أو توافق النمايات النهائية ليس بداته دليلاً على التدبير ، ولكنه كذلك بحسب بقدر ما رأينا بالتجربة أنه يجمع عن ذلك المبدأ . فإننا نستطيع أن نعرف معرفة قلبية أن المادة يمكن أن تشتمل في الأصل في ذاتها على نوع النظام أو مصدره على نحو ما يفعل الذهن ، والصعوبة في تصور أن العناصر يقع لها أدق ترتيب بفعل علة باطنية مجردة ليست أكبر منها في تصور أن أفكار

هذه العناصر يقع لها الترتيب في الذهن الكلي العظيم بفعل علة باطنية مجردة عائلة . فالإمكان المتبادل في كلا الطرفين . لم به ، ولكنا نجد بالتجربة - فيما (كلياتش) - أن هنالك فارقاً بينهما : نرم مما قطع عديدة من الصلب لاشكل لها ولا صورة لها لن تقرب الشئ بحيث تولف ساعة ، وإن الحجر والطلاء والخشب من غير مهدهس لن تقيم البتة مزل . ولكننا نرى أن الأفكار في ذهن بشرى تقرب تدبير مجهول - مستحسن على التدبير - بحيث تكون خطة سابعة أو مزل . فالتجربة من ثم تدل على مبدأ أصل النظام في الذهن لا في المادة ، ونحس تسندل من مصومات متشابهة على حال متشابهة . وتوافق الوسائل والغايات في العالم عائل لتوافقها في آلة من إبداع البشر ، ومن ثم يلزم أن تكون العلة متشابهة .

لقد افترضت منذ البداية - وهذا ما أقرب به - هذا التشابه المزعوم بين الله والخلوقات البشرية ، وينبني أن أنوره منطوية على ضرب من الخطأ من شأن الموجود الاسمي لا يبع أى مؤس صادق أن يطبقه . ومن ثم فمما حاول بهونك يا دميان أن أمانع عما دعوت به - بحق - القوم من المشوق في الطبيعة الإلهية ، وسأدحض استدلال (كلياتش) الذي صورته - بتسليمه - تصوراً آمناً .

[هنا وافي (كلياتش) معنى (ديون) صد ولة صحت على البحر النازل]

والآن يا (كلياتش) لن أسألك كثيراً أن كل الاستدلالات الخاصة بالواقع منبئة على التجربة ، وكل الاستدلالات

التجريبية منبئة على افتراض كون العلة المتأثلة دليلاً على معلومات متأثلة .

ولكنني أشتكك إلى ملاحظة مدى التعرُّط البالغ الذي يقدم به المستدلون بالدول على نقل التجارب إلى حالات متأثلة ، فالتم تكن الحالات متأثلة تماماً دقيقاً فتزعم أنهم بتطبيق التجربة الماضية على أية ظاهرة جزئية . وكل تغير في الملائات يقضى إلى ذلك في الحادثة ويطلب تجارب جديدة للتدليل في يقين على أن الملائات الجديدة لا شأن لها ولا أهمية . إن أى تغير في حجم الهواء أو الأجسام المحيطة ، في حالتها وفي ترتيبها ، في حرما وفي وضعها ، أى جزئية من هذه الجزئيات تصعب أبعد النتائج من التوقع . وما لم تكن الموضوعات مألوفة لنا إنما فما من أشد الثبور أن توقع حادثة مشابهة لذلك التي وقعت من قبل تحت ملاحظتنا . وخطوات الفلاسفة الوحيدة الانبثاقية - وهنا وفي كل مجال - تتميز من السير الخدوع هذه الدوام الذين يتجولون مستعدين إلى أحوال تشابه وهم قاصرون عن كل فطنة أو تدبير .

ولكن هل يمكنك يا (كلياتش) أن تظن أنك قد حافظت على نفسك وعدم مبالاةك بمثل تلك الخطوة العريضة التي خطوتها حين قارنت العالم بالمنازل والسفن والآلات والآلات ، وخلصت من تشابه في بعض الملائات تشابه في منها ؟ إن الفكر والتدبير والذكاء كما تكشفها في الآناسي والجيرانات الأخرى لا تبدو أن تكون أحد

منايع العالم ومبادئه شأن الحرارة أو البرودة والانجذاب أو الارتعاد ومئات أخرى مما يقع تحت ملاحظتنا اليومية . ثم هلة نجد ما أن بعض الأجزاء - خاصة في الطبيعة - تولد تحولات في أجزاء أخرى ، ولكن هل في الوسع - بأية صفة - أن تنقل نتيجة من الأجزاء إلى الكل ؟ هلا يمنع التفاوت العظيم كل مقارنة أو استدلال ؟ هل نستطيع من ملاحظة جرم شجرة أن نعلم شيئاً ما يخصاً بشكوك الإنسان ؟ وهل يمكن أن تزود من طريقه إلهاز ورقة شجر - وإن عرفنا ما معرفة كاملة - بمعلومات عن الخضراء شجرة ؟

ولكن إذا سلنا بأنه ينبغي لنا أن نصافي عمليات جزم من أجواء الطبيعة بعمليات جزم آخر لنقيم حكماً فيما يخص بأصل الجميع - وهذا ما لا يمكن الأخذ به قط - فلم إذن نخار مثل ذلك المبدأ المبالغ في دقة وصعوت وضيقه - شأن العقل والتدبير في الحيوانات - في هذا الكوكب ؟ أى ميزة خاصة لهذا الاختلاج الضئيل في الملح - الذي ندعوه فكراً - حتى يلزم لذلك أن يجعلنا نمثله على كل الظروف . ولكن ينبغي للفلسفة السليمة أن تدفع في عناية هذه الاغلوطة الطبيعية .

(مستمراً في حديثه)

x وإذا كنت بعيداً عن أن أسلم بأن في مقدور عمليات جزم أن تزودنا بنتيجة صحيحة عن أصل الكل ، فأكنت لأسلم بأن جزءاً ما يمنع

قاعدة لجزء آخر ، إذا كان الثاني ناتجا جذاً عن الأول . هل ثمة أساس معقول لاستنتاج أن لسكان الكواكب الأخرى مفكراً وذكاء وعقلاً أو أى شيء مماثل لهذه المميزات في الأساس ؟ لما كانت الطبيعة قد نوعت تنوعاً تاماً في طريقة عملها في هذه الكرة الصغيرة فهل يمكننا أن نتجمل أنها تحكي تدبيراً لها دون توقف في جوانب عالم بالغ في انشاعه ؟ وإذا كان الفكر - كما نحن نحقق - محصوراً في هذا الركن المربع خشب ، بل وله في هذا الركن أيها دثرة من الفعل مائة التعديد ، فأي مداد نستطيع أن نجعل منه هذه الأشياء جميعاً ؟ إن نظرات الفلاح الصيفة ، ذلك الفلاح الذي يعمل من التدبير المثلث قاعدة لحكومة الممالك ، على - بالمقارنة - مسطرة يلتمس لها الذكر .

ولكن إذا كان لنا أدب تنقذ إلى حد كبير بأن فكرنا وعقلنا - يشبه تفكير والعقل البشري - يلزم أن يحددهما في جوانب العالم جميعاً ، وإذا كان نشاطهما في مكان ما أعظم إلى حد بعيد وأقوى سلطاناً مما يبدو في هذه الكرة فأي لا نستطيع أن أرى لم كانت عمليات عالم مكون مرتب منظم يمكن أن تتبسط انبساطاً شديداً إلى عالم لا زال جيباً وما قد - تقدم نصوص ذلك الكون والترتيب نحن نعلم - الملاحظة - بعض الشيء عن تدبير حيوان فان فعله وعذاته ، ولكن يجب علينا أن نقبل تلك الملاحظة - عدد عظيم - إلى نمو الجين في الرحم ، وبمقدور أعظم إلى تكون الجرثومة في أصلاب والده الذكور . نحن نجد - حتى من تجربتنا المحدودة - أن الطبيعة عدداً لا متناهاً من الناحية

والمبادئ تكشف من نفسها باستمرار عند كل تغير في وضعها وحالتها . ونحن نستطيع - دون تهويل بالغ - أن ندعى تعيين أى عال ومبادئ جديدة مجزولة تشير الطبيعة في مثل حالة جديدة مجزولة كحالة تكوّن عالم .

إن جزءاً أصغر جداً من هذا النظام قد انكشف لنا في غضون زمن قصير جداً انكشافاً ناقصاً ، فهل لنا من ثم أن نقول قولاً قاطعاً فيما يخص بأصل الشكل ؟

نتيجة راتمة ! الحجارة والخشب والأجر والحديد والنحاس ليس لها في هذا الزمن في هذه الكرة الدقيقة من لأرض نظام أو ترتيب بغير الفن والابتداع البشري . ومن ثم لم يكن في وسع العالم في الأصل أن يدرك نظامه وترتيبه إلا بما يشبه الفن البشري ، ولكن أليكون جزء من الطبيعة قاعدة لجزء آخر مما شاع جداً ؟ أليكون قاعدة للكل ؟ أليكون جزء صغير جداً قاعدة للعالم ؟ هل الطبيعة في إحدى الحالات قاعدة معينة للطبيعة في حالة أخرى بالغة في احتلامها على الأولى ؟

وهل يمكنك يا (كلياتس) أن تلومني إذا - كنت هنا تحفظ

(سيمونديس) ^(١) الصبر ، الذي طلب - كما جاء في القصة المشهورة ^(٢) - عندما سأله (هيرو) ^(٣) أى شيء كان الله ؟ ، طلب يوماً ليفكر في السؤال ثم يرمي الآخرين ، وما زال يجد المهلة على هذا النحو دون أن يقدم تعريفه أو وصفه ؟ هل لك إذن أن تلومني إذا كنت قد أجبت في البداية أنني لأعرف ، وكنت أحس أن هذا الموضوع يقع سيدي بعداً شامخاً عن متناول ملكان ؟ يمكنك أن ترميني بأنني شاك أو هارل ما لهذا لك هذا ، ولكنني لما وجدت نقائص من نقائص العقل البشري في موضوعات أخرى أكثر لفظة ، فليس لي البتة أن أنتظر أى نجاح من تكلماته الواهنة في موضوع على مثل هذا السمو والجلد عن دائرة ملاحظتنا

إذا لاحظت أن جنين من الموضوعات قد اقترنا بما دائماً فاستطيع أن أستدل بالمادة على وجود الواحد حيثما أشاهد وجود الآخر ،

(١) Simondes : خاضق فثنى يوراني أشهر بالرائي الوطنية والأخلاقية والأخلاقية
الرومية . [٤٦٧ - ٥٠٦ ق م] على القريب [انظر] .

(٢) [رجع إلى كتاب (طيبة الأمانة) لتيهرون - الكتاب الأول ٢٢
Cicero : De Natura Deorum .
أظهر في ذلك هامش من ١٤٩ من طبعة كسب سميت المحاورات . ولقد سنة ١٩٤٧
[انظر] .

(٣) Hiero : طائفة من طلاء سمها فوس حكم من ٢٧٨ - ٢٦٧ ق م . كان
حجة . الشدة . الكتاب . [انظر] .

وهذا ما أدعوه حجة من التجربة ، ولكن قد يكون من الصبر أن نفسر كيف يمكن أن تطبق هذه الحجة حين تكون الموضوعات - كما هي في الحالة الراهنة - فريدة فردية لا تتماثل أو تشابه نوحى بينها ، وهل لإنسان ما أن يذكر لي في جد أنه يجب أن ينشأ عالم منظم من فكر أو ف ما كالفكر أو الفس البشري ، لأن لدينا تجربة عنه ؟ ويتطلب تأكيد هذا الاستدلال أن تكون لنا تجربة عن أصل السؤال ، وليس يكفي أننا قد رأينا سفتنا ومدنا نشأ من الفن والابتكار البشري .

• كان [فيرون] ما يجاهد الطريقة المادة ، الترجمة
إلى حصة ما - على ما بدا لي - بين الفواح والجد
عندما ليح بين حالات عدم الصبر على [كلياتس]
وحيلته ترفل على الفور . •

(كلياتس) : - لقد كنت أريد أن أقترح أنك ينبغي لك ألا تسمى استخدام الألفاظ أو تتلفع بالأصطلاحات القصية لتقلب الاستدلالات الفلسفية . أنت تعلم أن السوقة كثيراً ما يبرون العقل من التجربة حين عندما تصل المسألة بأمر الواقع والوجود لحسب ، ومع ذلك نجد عند تحليل ذلك العقل تحليلًا صحيحاً أنه ليس إلا نوعاً من التجربة . إن التدليل بالتجربة على أصل العالم من الذهن ليس أكثر تعارضاً مع القول الشائع من التدليل على حركة الأرض من نفس البدأ . وقد يثير مكابر نفس الاعتراضات جميعاً على النظام الكورنيكي

أى تشابه كذا بين بناء منزل وتكوين عالم؟ هل حدث لك أن رأيت في الطبيعة حالة تشبه أول ترتيب للعناصر؟ هل حدث أن صيحت العوالم تحت بصرك؟ وهل أتيتك لك أن تلاحظ تقدم الظاهرة بأسره من أول تبدل للنظام إلى تمامه البتة؟ إذا كان قد تبيّن لك هذا فأرو لنا تجربتك وفسق نظريتك.

الفصل الثالث

(كلياتش): انى أعجب من تلك الحجج المأيدة حين تصبح في يدى العقري المبتدع على شيء من الرجحان! أأنت هل بينة يا (فيلرن) من أنه قد أضحى من الضروري (لكوبرنيكوس) وتلاميذه الأول أن يدلّوا على التشابه بين المادة الأرضية والمادة السماوية لا شيء إلا لأن كثيرا من الفلاسفة وقد أعتمد المذاهب القديمة وأعاتهم بعض المظاهر الحسية قد أنكروا هذا التشابه؟ ولكن ليس من الضروري للمؤمنين - بأى حال - أن يدلّوا على التشابه بين أعمال الطبيعة وأعمال الفن لأن هذا التشابه بديهي غير منكور. إن التماثل في المادة ليعتد تماثل في الصورة. أى شيء يلزم بعد هذا لإظهار تماثل بين عالمنا وتلك صدور الأشياء جميعا عن غرض ومقصد إلى؟ يجب على أن أذكر لك بحرية أن اعتراضاتك ليست أفضل من المكابرات الباطلة عند أولئك الفلاسفة الذين أنكروا الحركة ويبنون دحضهم بنفس الطريقة، أحنى بالصور والتماذج والأمثلة تخيرا من الحجة والفلسفة الجادة.

هـب من ثم أن صوتا وأصنع الترات قد سمع بين السحب أهل وأرسم من أى صوت يمكن للفن البشرى أن يصل إليه، هـب أن هذا الصوت قد انبسط في اللحظة عينها على الأوطان جميعا، وتحدث إلى كل وطن بلهته ولهجه الخاصة، وهـب أن الكلمات المنفردة لا تشمل

٤٨ : ٢ : عودت في الدين اليس

الذي عارضت به استدلالاتي قد يقول لك هل لديك أرض أخرى رأيتها تتحرك؟ هل ...

[فلود]: (يصيح غافلا)

نعم لدينا أراض أخرى أبست القمر أرضا أخرى مراها تدور حول مركزها؟ أليس الزهرة أرضا أخرى ملاحظ بها الظاهرة عينها؟ أليست انقلابات الشمس أيضا تأيدا بالتشيل للظرة نفسها؟ إن لم تكن الكواكب جميعا أراضى لها الذى يدور حول الشمس؟ أليست السيارات أقرا تدور حول المشتري وزحل وتدور مع هذه الكواكب الأولية حول الشمس؟ هذه التنبيلات والمشافات إلى جانب أخرى لم أذكرها - هي الأدلة الوحيدة على النظام الكوبرنيكى، وهليك أنت أن ترى ما إذا كان لديك تميلات من التوح نفسه لدم نظريتك.

[وصى يفسحون]

والحق يا (كلياتش) إن الباحثين جميعا قد أخذوا إلى حد عظيم بالنظام الحديث في الفلك. وقد أصبح هذا النظام جزءا جوهريا حتى في تعليمنا المبكر، وبلغ من جوهريته حدا لم نعد معه - بوجه عام - ترتيبا ترتيبا كبيرا في نفس الأسباب المتنبى عليها وأصبحت تدرس أوائل من كتبوا في هذا الموضوع أراضا للتطلع وحده، أولئك الكتاب الذين كان عليهم أن يهاجروا التفرغ أقوى ما يكون، وكانوا مضطرين أن يديروا حججهم على كل جانب ليحولوها شمية مقنعة.

ولكننا إذا تصفحنا بأعند معاورات (جاليليو) تشيرة في نظام العالم سنجد أن ذلك العقري العظيم - وهو واحد من أسس العبارة الذين ظهروا في الوجود - قد صوب كل عاولاته أولا للتدليل على أن ليس ثمة دعاما للتدليل الذى تقوم به بوجه عام - بين الجواهر الفضرية والجواهر السماوية. وقد مضت المدارس قديما هذا التميز إلى حد بعيد - صادرة عن أعاليط الحس - وأفرت أن الجواهر الأخيرة لا تعمل، ولا تفن، ولا تتحول وأنها غير محسة ونسبت الكيفيات المضادة جميعا للجواهر الأولى، ولكن (جاليليو) بابتدائه بالقمر دليل على مشابهته في كل جزئية للأرض. في كلكه المحدث في ملامحه الطبيعي عند عدم إضاءته، في كذايته، في انقسامه إلى صلب وسائل، في تنوعات وجوهه، في الأضواء المتبادلة بينه وبين الأرض، في الخسوف المتبادل بينهما، في عدم التساوى في السطح المظلم... الخ. رأى الناس بوضوح - بالنظر إلى الكواكب بعد كثير من الأمثلة من هذا الضرب - أن هذه الأجسام أم حجت موضوعات حقة للتجربة، وأن التشابه في طبيعتها يمكننا من اسط الحجج والظواهر عينها من الواحد إلى الآخر.

في تقدم الفلكيين الحذر في هذا، يمكنك يا (كلياتش) أن تطالع ما يدحض قولك أو - بالأحرى - ترى أن الموضوع الذى تشغل نفسك به يتحلى كل عقل وبحث بشري؟ هل يمكنك أن تدعى إظهار

معنى صحيحاً وحسب بل وتعمل أيضاً تائيداً ما خلقة بوجود جواد
أسمى من الجنس البشرى أيكرون في وسلك أن تتردد لحظة فيما يختص
بمعة هذا الصوت؟ وهلا وجب عليك أن تنسبه في الحال إلى عرض أو
هدف ما؟ يد أنى أستطيع أن أرى أن نفس الاعتراضات - إذا
كانت تستأهل هذه التسمية - المنسبة على مذهب المؤمنين، يمكن أيضاً
استخدامها ضد هذا الاستدلال .

أليس يسهل القول بأن كل النتائج المختصة بالواقع قد أتت على
التجربة: إذا عندما نسمع في الكلام صوتاً واضح التبرات ونستدل من
ثم على إنسان فالتجربة بين المتولات بحسب هو الذى يؤدى بنا إلى
استنتاج تشابه مماثل في اللغة . ولكن هذا الصوت الخارج بما فيه من
علو وانهاض ومرورة يبعث الملمات ينطوى على عمالة متشبهة لآى صوت
بشرى، حتى أنه ليس ثمّة داع جملنا نفترض تماثلاً في طلبها، وبالتالي
فهو قول مقبول حكيم منسق لا يدرى من صدر من صفيح ربح طارىء
لا من عقل أو ذكاء إلهي؟ فأت ترى بجملة أن مكان اعتراضاتك
هو بين هذه المكابرات، وأنتى لامل أيضاً أن ترى بجملة أنها لا يمكن
أن تكون أقوى في حالة منها في الأخرى .

ولكن لكي نجعل الحالة أقرب إلى حالة العالم الراضة سأقدم
باعتراضين لا يتطوأن على بطلان أو استحالة . هب أن هناك لغة
طبيعية عالية ثابتة مشتركة بين أفراد الجنس البشرى جميعاً، والكتب هي

(لغى^(١) وتاكيوس^(٢))، وإن أى اعتراض تبادر به في الحالة الأولى
بأن تنكصننى على أعتاق إلى مشهد غير متبادر كذلك المشهد
الحاصل بالصياغة الأولى للوالم، أن هذا الاعتراض نفسه ينطبق على
افتراض مكتبتها الثابتة . اختر إذن يافيلون جانبك دون انس أو
تهرب وإزعم أن جملة عقلياً ليس دليلاً على حلة عقلية أو فسلح حلة بماتة
لأعمال الطبيعة جميعاً .

(وسمى سيبس بول)

دعى الاحتمال هنا أيضاً أن هذه الحجة الدينية يدل أن يوهنها ذلك
الشك الذى أوغلت في تكلفه تكتسب بالآخرى القوة منه وصحير
أرسخ وأبعد عن الجدال . إن رفض كل حجة أو استدلال من كل نوع
لهو إما إندفاع عاطفى أو حنون، وإن التعالم المرهقة هند كل شك
مرن هي غلب رفض الحجج العصبية الثابتة الرفقة وانواع الذوق السليم
وعرائز الطبيعة البسيطة، والتصدق حينما تؤثر فيه أمباب ما تأثراً بالما
في قوته بحيث لا يستطيع أن يمتص إلا بنصف شديد . والآن إن سميج
الدين الطبيعى هي - بكل بساطة - من هذا النوع وليس ثمّة شيء يمكن أن
يرفضها إلا أشد المية يزيقا التواء وعناداً . تأمل في العين شرسها، واقب
تركيبها وصياغتها، واذا كرتى من شعورك الخاص ما إذا كانت فكرة

(١) Lévy مؤرخ روماني (٥٩ ق.م - ١٧ م) له تاريخ روماني ١٤٧
سفر حتى منها ٣٠ سفرأ عن تأسيس المدينة . (الترجم) .
(٢) Tacitus ولد سنة ٥٨ م - مؤرخ روماني له تاريخ وتواريخ وحوارات
بين الخلفاء . (الترجم) .

ثمرات طبيعة تحافظ على بقائها - على نحو ما تفعل الحيوانات والحصر -
بالسلالة والانتشار، وأن تميزات عديدة عن عواطفنا تشغل لغة
عالمية، والبهائم جميعاً حديث طبيعى وإن يكن محدوداً إلا أنه موافق
لنوعنا موافقة عظيمة . وكان هنالك أجواء أصال لاحد لها، وانكاراً
أقل في أدق تأليف بلاغى منه في أفلط جسم عضوى فكذلك انتشار
الأيادة أو الأيافة افتراض أيسر من انتشار نبات أو حيوان .

هب من ثم أنك ارتدت مكتنتك وهي حالة مجلدات طبيعة مشتملة
على أرفع عقل وأبدع جمال، فهل في وسلك أن تفتح مجلداً واحداً منها
وتشك في أن عنه الأصلية تحمل أقوى مماثلة بينها وبين الدهن والدهاء؟
عندما تستدل وتحدث عندما تحتاج وتحاطر وتقبل نظراتها ومباسنها،
عندما تستخدم العقل المحض أحياناً والعواطف أحياناً أخر عندما تجمع
وتنسق وتتفق كل اعتبار يوافيك الموضوع، فهل في وسلك أن تصر على
الزعم بأن هذا كله لم يكن له في قراره أى معنى، وأن أول صياغة لهذا
المجلد في أصلاص منفك الأول لم تنجم من الفكر والتدبير؟ إننى لأعلم
أن عنادك لن يبلغ بك هذه الدرجة من العسالة . بل وهبك الشكى
وهوك ليخيلهما هذا الخشخشة الصراخ .

يد أنه إذا كان ثمّة فارق يا (بولون) بين هذه الحالة المفترضة والحالة
الحقيقية للعالم فإن الفهم كله يعود على الأخيرة . إن تشريح حيوان
يزودنا بماتة عديدة على التدبير أقوى من تلك التى تزودنا بها مطالعة

صانع عاص قد عنت لك في الحال قوة مماثلة لتوة الإحساس . إن
أوضح نتيجة هي على التأكيد في صالح التدبير وتطلب وقتاً وتأمل
ودراسة لتجمع تلك الاعتراضات الثابتة التى قد تدم الاتحاد - وإن
تكن اعتراضات ضعيفة . فن ذا الذى يستطيع أن يشهد الذكر والأنثى
من كل جنس ويلحظ التوافق بين أجزائهما وغرائزهما، بين عواطفهما
وجمى حياتهما قبل التواله وعنده لا يشعر أن انتشار الجنس قصد
الطبيعة؟ إن ملايين وملايين من هذه الأمثلة تزل في كل جزء من
أجزاء العالم، وليس ثمّة لغة يمكن أن تحمل معنى أكثر تعقلاً وأبعد عن
أن يقاوم من ذلك التوافق الغريب بين العمل العائنه . ومن ثم فالى أى
درجة من الديمقراطية المعبأ يلزم أن يصل المرء لينسى مثل هذه الحجج
الطبيعية المقتنة؟

قد طلق في الكتابه بعض وجوه الجمال - تبدو متعارفة مع
التواعد - تجذب العواطف وتحرك الخيال مع منافاتها لتعاليم الفقد جميعاً
ولسلطان الأساتذة الراشدين في الفنى . وإذا كانت حجة الاعتقاد بالله
هي كادعى منافضة لمبادئ المتفق فإن كتابتها وشروطها غير المدافع
لبدلان يوضح على أنه قد تكونت هنالك جميعاً من طبيعة
شاذة . وأياً كانت المكابرات التى قد تثار فإن عالماً منظماً لا يزال
يقبل - شأنه شأن حديث منق واضح - على أنه دليل غير منكور على
التدبير والقصد .

وبعدت أحياناً - كما أسلم - ألا يكون الصحيح الدينية نفوذها الذى
تستأله على وحشى جاهل وبربرى، لا لأنها غامضة صعبة، بل لأنه لا يزال

فه ألبه أى سؤال جسددها ؟ متى نشأ التركيب العريب للجوان ؟ من تراوح والديه ؟ ومتى نشأ تركيب هذين ؟ من والديهما ؟ انتقالات قلية تجعل الموصوع على بعد منه بحيث يقتضيهما فى ظلام وخط ولان بحيث أى تطلّع على تليهما إلى أبعد من ذلك . ولكن هذه ليست دجاطقة ولاهى شكية وإنما هى غباء ، أعنى حالة للذهن تختار اختلافا عظيمًا عن موقفك المندقق الباحث بأصديقى الميقرى . فى وسعك أن تصل إلى الملل من طريق المعلولات وفى وسعك أن تقارن بين أبعد الموضوعات وأتاهاء وإن أعظم أخطائك ليست تنجم عن جذب فى التفكير والإبتداع بل عن مرطخص بكتب ذوقك السليم الطيى بفيض من الارتيايات والاعتراصات التى لا ضرورة لها .

• وهنا كان فى وسعى (هرموس) أن لاحظ أن (ديون) قد نلل واخط عليه الأمر شيئًا ما يبد أنه إذ كان مردودًا فى البهدة بالإجابة تدخل (ديبلد) - لمن سله - فى الحديث مستفادًا ما وجهه •

(ديان) : لما كان منك يا (كياش) المستقى من الكتب والامة مألوفًا فإن له باعتراق قوة أعظم فى هذه الناحية ، ولكن أليس ثمة خطر أيضًا فى هذه الحالة عينًا ؟ أو ليس فى وسعهم أن يميلوا معورين . إذ يوهنا بأننا نحيط بالله وأن لدينا فكرة موافقة عن

وملام وشفقة وغيره وحسد ، صلة واصبة بحالة الإنسان ولها دخل فى استمرار الوجود وفى ترقية نشاط مثل هذا الموجود فى مثل هذه الملابس ، ومن ثم يبدو من غير المعقول أن تنقل مثل هذه المشاعر إلى موجود أسمى أو تقترض كونها تنيره ، هذا إلى أن طواهر العالم لن تزيدنا فى نظرية كذب ، إن جميع أفكارنا المستندة من الحواس باطلة معاملة مشوشة وليس فى الوسع - من ثم - اقتراض مكان لها فى عقل أسمى . ولما كانت أفكار الإحساس الباطن مضافة إلى تلك الخاصة بالحواس الخارجية تولد كافة متاع العقل البشرى ففى وسعنا أن نخلص بأن ليس ثمة مادة من مواد الله من متلة - فى أى موطن - فى العقل البشرى والعقل الإلهى . والآن - فيما يتصل بطريقة التفكير - كيف تقوم بأية مقارنة بينهما أو نقرهما على نحو ما يتائلن ؟ أن تفكيرنا متقلب منتقل إلى اليقين ، سيار ، متعاقب ومركب ، وإذا حينما جانا هذه الملابس لحونا جوهره محوًا فاما ، وفى هذه الحالة يندو من أساءة استخدام الالفاظ أن نطلق عليه اسم الفكر أو العن . وإذا بدا - على الأقل - أكثر تقوى واحتراما - كما هو فى الواقع - أن تحتفظ بهذه الالفاظ حين ننوه بوجود أسمى فينبى أن ندرك أن معناها - فى تلك الحالة - غير مفهوم على التام ، وإن تقاض طبعنا لا تيسر لنا الوصول إلى أفكار ما تطابق على أقل تقدير تسمى الصفات الإلهية الذى لا يمكن التعبير عنه .

طبعته وصفاته ؟ عندما أقرأ أجدادًا أتى أفق إلى ذهن المؤلف وقصده ، أتى لا كونه على نحو ما - وتلك الفترة - ويكون لدى شعور مباشر وحضور مباشر لتلك الأفكار التى جالت بذهنه عندما كان مشغولاً بوضع مؤلفه . ولكن ليس فى وسعنا قط أن نقوم بهذه المقارنة بصدده . فطرائفه ليست طرائفنا ، وصفاته كاملة ولكنها غير مفهومة . وكتاب الطبيعة هذا ينطوى على لغز عظيم - مستهضى التفسير - أعظم من أى حديث أو استدلال مفهوم .

وأنت تعلم أن الاملاطونيين القدامى كانوا أكثر الفلاسفة الوثنيين تدنيا وورعا ، بيد أن كثيرا منهم - وعلى الأخص (أفلوطين) - " يملن فى صراحه أن العقل أو القهم لا يتصل لله ، وأن أكل عبادة مثاله تخلص لا فى أصال الاحترام والتوقير والوفاء أو المحبة بل فى حروب من الفناء الذاتى العارض أو الثلاثى التام لجميع ملكاتنا . وربما انبسطت هذه الأفكار إلى مدى بعيد جدا ، ولكن يجب أن نعلم - مع هذا - أن فى تمثيل الله معقولا مفهوما مائلا لذهن البشر وصحة لنا بأفط تحوُّب وأضيقة وانغاد أنفسنا أنودجا العالم بزمته .

إن لحواطف الذهن البشرى جيها من وقاء وبرم وصداقة ووحى

(١) أفلوطين : (٢٧٠ - ٣٤٠ م) يندوف من المدرسة الاملاطونية الجديدة ، خلف بدرة الاسكندرية - مذهبه قائم على وحدة النفس واة بالفناء والتأمل [المترجم]

الفصل الرابع

(كياش) : يبدو غريبا يا (ديان) أنك وأنت الرائق ثقة شديدة بقضية الدين لازلت أحدا بطيعة لله فاضعة غير مفهومة ، وما برحت تلج فى احتدام على أنه ليس بينه وبين المخلوقات البشرية أى نحو من المماثلة أو التشابه . يمكن أن أبادر فأسلم بأن لله قوى وصفات عدة لا إحاطة لنا بها . ولكن إذا كانت أفكارنا - مهما بعد مدى ما تصل إليه - ليست صحيحة وموافقة ومطابقة لطبيعته الحقيقية ، فلت أعرف ما هو جدير بالأكيد فى هذا الموضوع .

هل للامم بدون معنى مثل هذه الأهمية القوية . وكيف تختلفون أنتم المنصوفة - وأنتم تأخذون بعدم الإحاطة (علاقا بالله - من الشكاك والملحدن الذين يزعمون أن اللة الأولى لكل مجهولة لا سبل إلى تمثيلها ؟

إن نهوم لا بد وأن يكون عظيما جدا ، إذا كانوا بعد تمحيثهم الاتاج من ذهن - أى ذهنا صانداً للذهن البشرى ، فلت أعرف ذهنا غيره - يردون فيدهون أنهم يبدون فى يقين علة أخرى نوعية معقولة - بل ويلزم أن يحالج ضميرهم الارتياب الشديد أيضا ، إذا أبوا أن يسموا اللة السكية المجهولة لغا ، وأن يخلعوا عليه المدائح والالجاب العديدة الحالية من المعنى ما لئله لك أن تضاهيه •

(ديمان) : من كان يمكنه أن يظن أن (كلياشن) ، (كلياشن) المادى. المتخلف سيحاول أن يخصص خصومه بأن يرميهم بشئ ، ويستمر - شأن عامة ونصولى العصر - بالتعطيل الحاسى والقدرح دلا من الاستدلال . أولا يدرك أن هذه المباحث من الميسور الخافها وأن المشية تسمية تبلغ مبلغ لقب الصوفى - الذى شرفنا به - فى اجتماعها لخص وفى انطوائها على نتائج خطيرة والحق با(كلياشن) أن تروى فكرك فيها تؤكدك حين تمشى الله مشايها للنهن وفهم بشرى . ما هى نفس الإنسان ؟ انها تأليف بين ملكات وعواطف ومشاعر وأفكار متنوعة متحدة حقا فى (أنا) واحدة أو شخص واحد ، يد أنها لا تزال حيزية الواحد منها عن الآخر . وعندما تستدل بترتب الأفكار - وهى أجواء حديثها - فى صورة معينة أو نظام معين لا يبقى على إطلاقه لحظة فى يسمح الليل فى الحال لترتيب آخر ، أو تنشأ آراء جديدة وغوالب جديدة وأساسيس جديدة تشكل تشكلا متواصلا من المبدأ الفعلى وتولد فيه أصغر تنوع وأسرع تعاقب يمكن تخيله ، فكيف يكون هذا مراتبنا لهذا الثبات الكامل وهذه البساطة الكاملة الذين ينسبها كل المؤمنين قاصدين ؟ هم يقولون أنه يرى - بفعل واحد - الماضى والحاضر والمستقبل ، فبعينه وكرامته ورحمته وعدله ، كلها عملية مفردة واحدة : فهو مطلق فى كل نقطة من نقط المكان وهو كامل فى كل لحظة من لحظات الزمان . فليس ثمة تعاقب ولا تنير ولا زيادة ولا نقصان . وما هو عليه لا يطرأ على أى ظل من ضلال التميز أو التثكل .

وما يكونه فى لحظة كان عليه أبداً وبفضل عليه أبداً ؛ دون حكم جديد أو إحساس جديد أو عملية جديدة فهو يشك على حالة واحدة بسيطة كاملة ، وليس من البداد قط أن تقول إن فعله هذا يختلف عن فعله ذلك أو أن هذا الحكم أو هذه الصيغة قد صيغت أخيراً ومتنقح السيل - بالتعاقب - لحكم آخر مختلف أو فكرة أخرى مختلفة .

(كلياشن) : إننى لأسلم طامئاً بأن أولئك الذين يأخذون بوجود اسمى كامل البساطة بالمدى الذى شرحت أنت ، هم صوفيون تماماً ومسئولون عن كل النتائج التى استخلصتها من رأيهم . هم باختصار ملحدون دون علم منهم إذ أنه من المسلم به أن لله صفات لا إحاطة لنا بها ، يد أننا ينبغي ألا ننسب إليه الية صفات تنفرد تنفراً مطلقاً مع طبيعت الماكلة الجوهرية . أن ذهننا أفعاله ومشاعره وأفكاره ليست متميزة ولا متعاقبة ، ذهننا بسيطاً ساطعاً نامة ثابتاً شاملاً هو ذهن لا فكر له ولا عقل ولا إرادة ولا إحساس ولا محبة ولا كراهية أو - على الجملة - ليس هو ذهننا بالمره . ومن أسامة استخدام الانفاظ أن نطلع عليه لنياوفى وسننا كذلك أن نتحدث عن امتداد محدود دون شكل أو عدد دون تأليف .

(فيون) : إننى لأرجو أن تأمل فمن تخيلن الآن ، فأنت تشرف بقلب الملحد كل أساندة اللاهوت الأرثوذكسيين الخلفى الذين - على لأغلب - قد عاجلوا هذا الموضوع ، وسندك تنسك فى النهاية - وفقاً لتقديرك - المؤمن الصحيح الوحيد فى العالم . ولكن إذا

كان عباد الأصنام ملحدين - كما أن هذا قد يصح زعمه - وكذلك اللاهوتيون المسيحيون ؟ لأنهم يقولون المشية المستندة من الرجاء الكلى للجنس البشرى وإنى بلغت ملأاً عظيماً من الشهرة .

ولكننى - لئلى بأن الأسماء والسلطات لا تؤثر بك كثيراً - سأحاول أن أظهر لك - فى قدر أكبر من الوضوح - على صاوى المشية التى احتضنتها ، وسأدال على أنه ليس ثمة أساس لافتراض خطة العالم تحكم فى ذهن الإلهى مشتملة على أفكار مشيرة مرتبة ترتيباً مختلفاً على نحو ما يرمس مهندس خطة منزل يقصد تنفيذها .

إننى لأسلم أن ليس من الميسور أن نرى ما يحبه من هذا الافتراض سواء حكماً فى هذا الموضوع بالعقل أو بالتجربة وما برحنا مضطرين أن نرق إلى أعلى لكى نتف على عة هذه المسئلة التى يشت أبها شامية وافية .

إذا لم يكن العقل - أعمى العقل المجرد المستند من أبصاحت قبلية - أشبه بالأخرس بالنظر إلى كل المسائل المتصلة بالماله والمملول من المحاطرة - على الأقل - لإعلان هذه الجملة ، إن عالماً عقلانياً أو عالم أفكار يتطلب علة مثلاً يتطلب عالم مادى أو عالم موضوعات ، وما داماً متباينين فى ترتيبهما وجب أن يتطلبا علة مماثلة ؛ إذ ما الذى قد يؤدى فى هذا الموضوع إلى نتيجة أو استدلال معالف ؟ فهما متشابهان تشابها تاماً من وجهة نظر مجردة ، وليس ثمة إشكال بصعب الافتراض وليس ، مشتركاً بينهما .

ثم إذا أردنا بكل قوة أن نجعل التجربة على إصدار حكم - حتى فى هذه الموضوعات التى تقع خارج دائرتها - فلن يسعنا أن ندرك أى

اختلاف مادى فى هذه الناحية بين هذين الصربين من العوالم بل نجدهما عكسين فيما يمدى. متضادة ومتعبدتين فى عملياتهما على مدة متناهية من العال . فمن لدينا نماذج فى صورة مصغرة لكلهما ، ذهنايتهما أسدهما والجسم البياى أو الحيوان يشبه الآخر . فلتحكم التجربة إذن من هذه المينات . ليس ثمة شئ يبدو أدق بالنسبة لعالم من الفكر . ولما كانت هذه الملل لا تعمل قط على نحو واحد فى شخصين فكذلك لا نجد الية شخصين يفكران تفكيراً متاكلاً دقيقاً بل لا يفكر الشخص نفسه كذلك تفكيراً متاكلاً تماماً دقيقاً فى فترتين من الزمن مختلفتين . إن اختلافاً فى عمر المرء ، فى استعداد ذهنه ، فى الجو ، فى غذائه ، فى رفقته ، فى عواطفه ، فى أى جزئية من هذه الجزئيات أو غيرها أدق منها كلفة لتبدل فى آلة الفكر الغربية وتعمل إليها حركات وعمليات مختلفة جداً . وبقدر ما يسنا الحكم قول إن الحصر والأجسام الحيوانية ليست أدق فى حركاتها وليست تعتمد على تنوع أعظم أو على توافق أغرب بين المتابع والمبايد .

وعلى ذلك فكيف نتفق أقصنا بعدد علة ذلك الموجود الذى نكته صانع الطبيعة أو بمقتضى مذهبك فى المشية العالم المثالى الذى نمك على العالم المادى ؟ ليس لنا أن نقبس ذلك العالم المثالى على عالم مثالى آخر أو مبدأ عقلى جديد ؟ ولكن إذا توققنا ولم نعد فلم نذهب بعيداً ؟ لم لا نتفق عند العالم المادى ؟ كيف يسنا أن نتفق أفسنا دون أن نذهب قدماً إلى ما لانهاية ؟ وبعد كل هذا أى اقتناع هنالك فى ذلك

لنخدم فلان؟ لذكر قصة التلميذ الهندي وفيه فليس أكثر
تعلقات على شيء منها على موضوعنا الراهن . إذا كان العالم المادى يقوم
على عالم مثالى مشابه له لزم أن يقوم هذا الأخير على آخر وهكذا
بلا نهاية . لقد كان الأنفل إذن لا تمدد بالنظر قط العالم المادى
الراهن . فبافتراضنا إياه مشتتلا في حناياه على مبدأ نظامه تذهب حقا
إلى أنه هو الله ، وكلنا عملا الاقتراب من ذلك الموجود الإلهى كان
ذلك أفضل بكثير . إنك حينما تخطو خطوة واحدة تعدو بها النظام
الأرضى فإنتك تثير وحسب مراحا فضوليا من المستحيل إرضؤه .

إن القول بين الأفكار المختلفة التى تولدت عقل الموجود الاسمى
تتخطى نفسها وبطبيعتها الخاصة لمو فى الحقيقة حديث حال من المعنى
المتيقن . وإذا كان له معنى فإنتى لأننى أن أعرف لم يكن من الادراك
العلم أن تقول ان أجزاء العالم المادى تتنظم بذاتها وبطبيعتها الخاصة .
أمكن أن يكون أحد الرايين معقولا ولا يكون الآخر كذلك ؟

حقائق لدينا تجربة بأفكار تتنظم بذاتها ودون علة ما معلومة ، يد
أتى لوائى بأن لدينا تجربة أوسع بكثير عن مادة تؤدى العلم نفسه
كما فى جميع أمثلة التوالد والإنبات حيث التحليل الدقيق للغة يفوق كل
إدراك بشرى . كذلك لدينا تجربة عن نظم خاصة للفكر والمادة ليس
لها نظام . مثل الأولى فى الجنون ومثل الثانية فى الفساد . فلم إذن ينسب
لنا أن نعلن بأن النظام أكرم للوحدة منه للأخرى ؟ وإذا تطلب علة

فى كليهما فإذا نجح من مذهبه الذى يصعد من عالم الموضوعات إلى
عالم عاقل من الأفكار؟ إن الخطوة الأولى التى تقدم عليها نقودنا " قدما
إلى ما شاء الله . لقد كانت حكمة منا أن نحد كل أبحاثنا بالعالم الراهن
دون أن نتطرق إلى ما هو أبعد . لن نتوصل اليقينة إلى أى اقتناع
شاف من هذه التأملات التى تفوق إلى حد عظيم حدود الفهم
البشرى الضيقة .

وأنت تعلم يا (كلياتس) أنه كان ما لوفا عند المشائين عندما تطلب
علة لظاهرة ما أن يستنبطوا بملكانهم أو بالكيفيات الخفية وأن يقولوا
مثلا: إن الحيز ينفذ بخاصته المادية وأن السناكة تسبل بخاصتها المسببة
ولكن قد اكتشف أن هذا المذهب لم يكن منهم إلا نظمية للبل
وأن هؤلاء الفلاسفة - وأن يكونوا أقل عبقرية - قالوا - فى
الحق - نفس الشيء الذى قاله الشكك أو الوسوسة الذين اعترفوا فى
صراحة أنهم لم يعرفوا علة هذه الظواهر . وكذلك عندما يسأل أى
علة تترك النظام فى أفكار الموجود الاسمى ، هل يمكن أن
تظهر لنا أتم المشبه على أى سبب آخر غير أنها ملكة عقلية وأن تلك
هى طبيعة الله .

ولكن لم لا تقنع إجابة كهذه فى تفسير نظام العالم دون استعمار
بظان عاقل ، لم صحت تحديد هذه الإجابة كما تقرر ؟ تقول لحسب أن
ذلك هو طبيعة الموضوعات المادية وأنها مزودة فى الأصل بملكة
للنظام والتناسيب . هذه طرائق أكثر تضجعا ونهبذا فى الاعتراف بجهلنا

وليس لأحد الفرضين تفوق حقيق على الآخر اللهم إلا الساقه الأعظم
مع تفرعات السوقة .

(كلياتس) : لقد عرضت هذه الحججة بقوة عظيمة وبدونك لا تضرع
بالسهولة التى يجاب بها عليها .

وحثى فى الحياة العامة ، إذا عينت علة لاية حادثة قبل من اعتراض
على يا (فلون) إذا كنت لا أستطيع أن أعين علة تلك العلة وأن أجيب
على كل سؤال جديد يمكن أن يثار باستمرار .

وأى فلاسفة يسهم أن يخضعوا لمثل هذه القاعدة الصارمة؟ فلاسفة
يعترفون بأن العلم النهائية بجملة أطلافا ويشيرون بأن أرفع المبادئ
التي يتبعونها بها الظواهر لا زالت بالنسبة إليهم فى استعصاء تفسيرها
مثل هذه الظواهر عينها بالنسبة إلى السوقة . إن نظام الطبيعة وترتيبها
والتوافق القريب بين الملل المائية والقائدة الواضحة والقصد البين لكل
جزء ولكل عضو ، كل هذه تمكشفت فى أنصع لغة عن علة عاقلة أو
صانع عاقل .

إن السماوات والأرض لتجتمع فى شهادة واحدة وجودة الطبيعة
تزل بكائناتها أنشودة فى مدح عاقلها . وأنت وحدك - أو على الأغلب
وحده - تشوش هذا التناغم العام . أنت تبادر بشكوك مبهمه
ومكابرات واعتراضات ، أنت تسأل ما هى علة هذه العلة؟ لست أدرى
ولا ينبغي أن أدرى فذلك امر لا يخصنى . لقد وجدت إلها ومعبدا أفضل

بحسب . دع أولئك الذين ينفروا بملنا أعظم من الحكمة والجرأة بذهيون
إلى أبعد من هذا .

(فلون) : - لست أدعى أتى أحد هؤلاء ولهذا الذب عنه لم
يكن فى قط أن أحاول الوصول إلى ذلك الحد وخاصة عندما أشر
أن لا بدلى فى نهاية الأمر أن أقنع بذلك الجواب الذى كنت أقنع به
منذ البداية دون أن أكلب نفسى مشقة أكثر . إذا كنت ما برحت فى
جهل مطبق بالملل وليس بيسنى إطلافا أن أقدم تفسيراً لشيء ما طن
أرى قط أية فائدة فى أن أحمف لحظة من إشكال تقول أنت عنه أنه
لا بد وأن يخطئ لى فى الحال بكل قوته . والخوفان الطبيعيين ليسرون تفسيراً
صحيحاً جدا لمثل هذه جزئية بملل أم ، وإن لزم أن تظل هذه الملل
فى النهاية مستعصية للتفسير استعصاء تاما . ولكن لا شك أنهم لم يقتروا
قط بتفسير مطول جزئى بمللة جزئية ليست أوضح تفسيراً من المثلول
نفسه . أن نظاما مثاليا قد ترتب دون تدبير سابق ليس أخضع للتفسير
من نظام مادى يحقق نظامه عن نحو مماثل ، وليس فى الافتراض الأخير
إشكال أعظم منه فى الافتراض الأول .

• من له القدرة على أن يملك زمام العالم
التسبح ويقبض في اعتدال على أخته ؟
متذا الذي يستطيع أن يحيل السموات والأراضى
الحسبة جميعاً من نار إلى هواء ؟ وأن
يكون مثلاً في جميع الامكنة وكافة
الارمنة ؟ (١)

وإذا كان (توالى) قد ارتأى هذا الاستدلال طبعياً حتى أنه
أجره على لسان (أبيقور) (٢) :

(١) Quis regere immensi summam, quis habere profundi
Indu manus volidas potis est moderanter habenas ?
Quis pariter coelos omnes convertere ? et omnes
Igibus aetheris terras suffire feraces ?
Omnibus inque locis esse omni tempore praestos ?
(Lucritus lib. XI. 1094)

(٢) لية إلى أبيقور (٢٤١ - ٢٧٠ ق. م) فيلسوف يوناني وله على
الأهل إلى سلاوس وتلذ في أينا لا تكورراط . اتبع مذهب ديموقريطس . خلاصة
مذهب الانحلال أن القوة هي خير البشر الاسمي وسعى أن يوحى به . دنا للبول عليها
على الانشاق وراه نزوات الحراس . ولكن تلاميذه أساموا بقدر تامله فأغفروا إلى
القوة الحسية حتى صار اسم الأبيقوري دالة على الساجن للشيء . ومذهب أبيقورس
أساساً لمذهب (لوقريوس) من « طيبة الاشياء » . (الترجم)

انخفاض العقل

فيلون :- [متاعاً قسوه]

ولكن لكي أظهر لك على نقائص أكثر في مذهب المشية أروجك
أن تستعرض مبادئك من جديد : المخلوقات المتماثلة تدل على علل
متماثلة . هذه هي الحجة التجريبية وهي كما تقول أيضاً الحجة اللاهوتية
الوحيدة . ومن البين الآن أنه كلما كانت المعلومات المرئية أكثر تماثلاً
كانت العلل المستدل عليها كذلك وكانت الحجة أقوى . وكل انفصال
في أى من الجانبين ينقص الرجمان ويجعل التجربة أقل حسماً . وليس
يسمح أن تفكر في المبدأ كما لا ينبغي لك أن تفكر في نتيجته .

إن كل الاكتشافات الجديدة في الفلك ، تلك التي تدل على عظمة
أعمال الطبيعة وروعها المائلتين على جميع ثانوية على الله ، وذلك تبعاً
لمذهب الحق للاعتقاد . ولكن ربما لفرصتك في الاعتقاد التجريبي
تنمو هذه الحجج اعتراضات وتقصي إلى مدى أهد أثر كل تشابه
لمعلومات الفن والابتداع البشرى . إذ إذا كان (لوقريوس) قد
استطاع باتباع المذهب القديم في العالم أن يصيب . فيقول :

• بأى عين من عيون العقل استطاع أفلاطون
أن يحسب تركيب عالم بالغ العظم
كهذا العالم ليثبت أن إلهاً بناء وشاده ؟
وبأى أدوات وذخائر ومتشاقل وآلات
وعمال استعان إلهه ليرفع هذا الصرح
الساق ؟ وكيف أمكن للرباء والماء
أن يصير طيعةً سريرةً بين يدي هذا
المهندس ؟ (١)

أقول إذا كان لهذه الحجة قوة في التصور العارفة فأى قوة أعظم
يلزم أن تكون لها اليوم حيث اقتصت حدود الطبيعة انساناً لا نهاية له
وحيث استكتم لنا مشهد بالغ في روعته ، ما يرح من غير العقول
أن نصوغ فكرتنا عن علة غير محدودة من تجر بنا لقرات التسدير
والاعتراع البشرى الضيقة .

(١) Quibus enim oculis animi intueri potuit vester
Plato fabricam illam tanti operis, qua construi
a Deo atque edificari mundum facit ? Quae
molitio ? quae ferramenta ? qui vectes ? quae
machinae ? qui ministri tanti maneris fuerunt ?
quemadmodum autem obedire et arere voluntati
architecti aer, ignis, aqua, terra poterant ?

إن اكتشافات الميكروسكوب كما تكشف عن عالم جديد في صورة
مصغرة ما فتئت اعتراضات عندك وهي جميع عتدى . وكلما تقدمنا
بأبحاثنا أن من هذا النوع لازماً نصل إلى الاستدلال على علة كلية للكل
عختلفة اختلافاً شامعاً عن الجسد البشرى أو عن أى موضوع من
التجربة والملاحظة البشرية .
وماذا هناك قائلنا عن الاكتشافات في التشريح والكيمياء وعلم
النبات ؟ ...

(كلياتس) : هذه على التأ كيد ليست اعتراضات ؟ أنها لتكشف
وحسب عن أمثلة جديدة من الفن والابتداع . ولارالت صورة الذهن
منعكسة علينا من موضوعات لا حصر لها .

(فيلون) : أعنف ذهننا كالمذ من البشرى .

(كلياتس) : أما لا أعرف غيره .

(فيلون) : [مصرأ] .

والأشبه به هو الأمثل .

(كلياتس) : يقيناً

(فيلون) : [وقد بدا عبه الاجمع وتلخر]

والآن يا (كلياتس) لاحظ النتائج :-

أولاً : هذا المنهج في الاستدلال فرض كل دعوى من الاعتدالي
في أية صفة من صفات الله . إذ لا كانت العلة ينبغي وحسب أن تكون

متناسبة مع المعلوم ؟ ولما كان المعلوم - بقدر ما يقع تحت معرفتنا - ليس لا متناهياً ، فإذا يكون لنا من ادعاءات على افتراضاتك عندما تحمل تلك الصفة للموجود الإلهي ؟ ولكنك تستغل مصرا على أننا بإعادة عن كل مشابهة للمخلوقات البشرية ، بلغ أكثر القروض تمسكاً وفي حين الوقت نوهن كل الأدلة على وجوده .

ثانياً : - لاحق لك في نظريتك أن تنسب الكمال لله حتى في قدرته المتناهية أو في امتزاجه منزها عن كل زلة وخطأ وتخط في أعماله . هالك في أعمال الطبيعة اشكالات كثيرة هيبة التفسير يسهل سلبها لو سلطنا بصانع كامل يدلل عليه بدليل قبي وتفسير هذه الاشكالات قريبة من قدرة ضيقة لإنسان لا يسهل تتبع علاقات لا متناهية . ولكن - ربما لنهيك - فندبر هذه الاشكالات كلها حقيقة وربما أصررنا على القول بأنها أمثلة جديدة على مشابهة للفن والابتداع البشري . فبعض عليك - على الأقل - أن تعلم أنه من المحتجب علينا أن نذكر من نظراتنا المحدودة ما إذا كان هذا المذهب مشتملا على أعلام عظيمة أو مستأهلا لآى أطراء كبير عند مقارنته بمذاهب أخرى ممكنة بل وواقعة . هل في وسع قلاح إذا ثبتت عليه (الانادة) أن يقول إن تلك القصيدة عالية من المثلط خطأ مطلقاً أو يؤولها منزلتها الخاصة بين منتجات القطعة البشرية ، هذا القلاح الذي لم يهدف قط أى إنتاج آخر ؟ ولكن إذا كان العالم إنتاجا بالغ الكمال وجب أن يظل مفترقاً إلى البقيس ، إذا كان في الوسع أن نصيف بحق كل روائع العمل إلى

العامل . إذا استرحنا سفينة فأية فكرة رفيعة يلزم أن نكونها من عبقرية التجار الذي بنى مثل هذه الآلة المجددة المنيفة الجيلة ؟ وأية دعة يلزم أن نستصرها عندما مجده صامسا غيبا يترك الآخرين وينقل عن فن قد تقدم بالتدريج بعد أن مر بصور طولية متعاقبة وبعد محاولات عديدة وأخطاء وتصويبات ومشاورات ومجادلات ؟

لا بد وأن عوالم جديدة قد لفتت ورحمت منذ الآزل قبل ظهور هذا النظام واستند الكثير من الكدح والمحاولات للقاشة وأطرد - في هذه - إصلاح متصل لفن صناعة العالم خلال حضور لا نهاية لها . ففي مثل هذه المروضات متدا الذي يستطيع أن يشكك بتمكن الرجسان بين عدد ساعد من الفروض التي يمكن اقتراحها وبين عدد أعظم منها يمكن تحيله ؟

« ويثاق (فيلون) وه » :

وأى غلى لمحة يمكنك أن تستخلصه من فرصك لتدلل على وحدة ؟

إن هددأ عظيما من الناس يهتمون لبناء منزل أو سفينة ، في تفيد مدينة أو في تكوين جمهورية ، قليم لا يتعاون آلهه عديدون على ابتداع عالم وتخليقه ؟ هذه وحسب مشابهة أعظم الفنون البشرية ؟ إذ يتقسم العمل بين عديدين يمكن أن نعد بقدر عظيم صفات كل منهم وتخلص من تلك القوة والمعرفة المنبجسة التي يلزم أن تقتربها في إله واحد والتي

يمكن - ربما لك - أن تبين لحسب على توهين الدليل على وجوده وإذا كان ثمة مخلوقات شريرة حققاء كالإنسان يمكن أن تتحد في كثير من الأحيان على تنسيق خطة وتفيدها ليس الأخرى أن يكون ذلك أمر أولئك الآلهة أو الفياطين الذين يستطيع أن تعرض فيهم مراتب عديدة أكل ؟

إن الاقاضة في المال دون ما ضرورة يتعارض حقا مع الفلسفة الصاعدة ولكن هذا المبدأ لا ينطبق على الحالة الراضة . إذ إذا ثبت ثبوتا قسليا بالتدليل من نظريتك أن ثمة الها واحداً حاصل على كل صفة لازمة لإنتاج العالم لا احتيجا إلى - وهذا ما أسلم به وإن يكن باطلا - افتراض وجود إله آخر . يده أنه لا يزال موضع التساؤل ما إذا كانت الصفات جميعا متحدة في ذات واحدة أو موزعة بين موجودات عديدة مستقلة . وبأية ظواهر في الطبيعة نستطيع ادعاء الفصل في هذا الزواج ؟ لحيما نرى جسماً مرتقفا في كفة ميزان نتأكد من وجود وزن مساو - وإن يكن محوياً عن النظر - يمدله في الكفة الأخرى ؛ ولكن لا يزال هناك مجال للشك فيما إذا كان ذلك الوزن يحمل أجسام عديدة متميزة أو كتلة واحدة متحدة متمسكة . وإذا كان الوزن المستلزم يفوق إلى حد كبير أى شيء رأينا مقترنا في أى جسم مفرد لكان الافتراض الأول أقرب إلى الرجسان والطبيعة . أن موجودا مائلا عاقلا له من سعة القوة والقدرة ما هو ضرورى لإنتاج العالم ، أو إذا تحدثنا في لغة الفلسفة القديمة لقلنا إن حيوانا بالغ الضخامة ليفوق كل مماثلة بل وكل فهم .

ولكن يا (كلياخس) أن الناس فانون وهم يحددون جنسهم بالتوالد وهذا أمر مشترك بين المخلوقات الحية جميعا . ان (ملن) يقول . ان الجنسين المطميين - الذكر والأنثى - يندان العالم بالحياة . فلم يلزم أن تقضى هذه الملازمة الباعية في كلياتها وحسبها عن أولئك الآلهة العديدين المحدودين ؟ أطر ان في هذا لمردا إلى بحث منشأ الآلهة في الأزمنة القديمة .

ولم لاندو مشبها كاملا ؟ لم لا تزعم أن آله أو الآلهة متجسدة لها عيون وأنف وفم وآذان الخ ؟ لقد ذهب أيقوروس إلى أنه ليس ثمة انسان قد رأى الفقل اللهم إلا في شكل بشري . وهذه الحجة التي أفاض (شيشرون) يقيق - في الشئخر منها تندو ، ربما لك ، حجة فلسفية متينة .

وفي اختصار يا (كلياخس) إن من منفع فرصك ربما كان خليفا أن يزعم أو يشكك أن العالم قد نشأ في وقت ما من شيء شبيه بالتدبير ولكنه لا يستطيع - بهذا الموقف - أن يتحقق من ملازمة واحدة ، ويرتك بعد ذلك وقد أطلق المدان البخيلة والفرض ضمان كل نقطة من نقطة لاهوته ، وينبئ له أن يعلم أن هذا العالم غارق في الزال والنقص إذا قورن بمستوى أرفع وكان وحسب المحاولة الصعبة الأولى لإلهة طفل قد نقل عبا بعد ذلك تخلصا من عمله الأهرج . إنه وحسب لسبل إله تابع مان وهو هدف سخرية أقطابه وهو تاج أول قوة دامية تلقاها من إله هوم يبلغ من العمر والحرف أرذلها ودرج على المخاطرات حتى مماته . ولك الحق يا (ددميان) أن تبدى هلاهم القرح إزاء هذه

الافتراضات العربية . يد أنها وآلاما مثلها ، افتراضات (كلياتس) وليس على . فبذ اللحظة التي نفترض فيها أن الله متناه تفصح السبل لهذه الافتراضات جميعا . ولست أستطيع من جانبي أن أرى ما إذا كان مذهب لاهوت وحشي عتق مفضلا - على أية حال - على لاهوته أملاقا .

(كلياتس) : - [ساما]

إنني لأبرأ قطعا من هذه الافتراضات . ومهما يكن من شيء فهي لا تنال فرع ما وخاصة عند ما تعرض تلك الطريقة الخائفة التي عرضتها لها والأمر على العكس فهي تعدل بلذة عند ما أرى أنك وقد أطلقت العنان لخياالك إلى أقصى درجة لم تتخلص البتة من فرض هي التدبير في العالم ، بل اضطرت في كل موطن أن تستعين به . إنني لأتمسك تمسكا راسحا بهذا الإذعان واعتبره دعامة كافية للدين .

الفصل السادس

(دميان) : حقا يلزم أن يكون العالم مصنعا شيئا أمكن تشييده على هذا الأساس المرجح ، فإذا يبرزنا اليقين فيها إذا كان هنالك إله أو عدة آلهة تدبر لم . وجودنا ، كالمين أو ناقصين ، تابعين أو في القسمة ، فابن أو أحياء فأى ثقة أو إيمان يمكن أن نضعه فيهم ، أى تقان في الإخلاص وتبند ترجعه إليهم ؟ أى توقير أو طاعة نخضعهم لها ؟ تفند هذه النظرية مدعمة بالمادة انعدامها تما في كل أغراض الحياة وحتى بالنظر إلى النتائج النظرية ، فإن عدم يقينها - تما لك - يجعلها مفتقرة افتقارا تاما إلى التأكيد والافاق

(فيلون) : ولكن أريد في تبيان افتقارها إلى الاتباع ثمة فرض آخر سيجزى لي يكسب لاعتلة سمعة من الرجحان من منبج الاستدلال الذي أصر عليه (كلياتس) كثيرا ، ألا وهو أن المعلومات المتتالة نشأ من حلل متتالة . فهو يفترض هذا المبدأ دعامة كل دين ، ولكن ثمة مبدأ آخر من نوعه لا يقل يقينا ويستمد من مصدر التجربة عنه ، ألا وهو أنه حينما لوحظ تشابه بين ملابس عديدة معروفة لزم أن نجدده أيضا بين الملابس المجهولة ، وحل ذلك فعندما نرى أطراف بدن بشرى نستخلص أنها مصنوعة كذلك برأس بشرية وإن كانت محجوبة عنا .

وثمة ميزات أخرى عديدة في النظرية الأولى أيضا حينئذ لرجال اللاهوت القديس ألا وهي : أن ليس ثمة شيء أشد تناقرا مع تصوراتهم جميعا - لأنه ليس ثمة شيء أشد تناقرا مع التجربة العامة - من ذهن بلا بدن ، من جوهر روحي عصى لم يقع تحت حواسهم أو لمساطهم ولم يلاحظوا له مثلا واحدا في الطبيعة بأسرها . لقد عرفوا النفس والجسم لأنهم شعروا بهما وكذلك عرفوا فيها على النحو عينه ، نظاما وترتبا وتضوتا أو آلة باطنية ، ولم يكن مفر من أن يبدو من المقبول نفس هذه التجربة إلى العالم وأغراض ادهن والجسم متماصرت . ولكليهما نظام وترتيب منطمان فيه وبغير مفكرين عنه . ههنا من ثم يا (كلياتس) نوع جديد من مذهب المشية نستطيع أن نتدبره ، ونظرية لا تبدو قابلة لأية اشكالات كبيرة . لاشك أنك تقسمو على التفرضات فلا تجد مشقة ما في افتراض أن لجسم حيوان - في الأصل ومن ذاته أو من حلل مجهولة - نظاما وتعضوتا أكثر عما تجد في افتراض نظام مشابه بعزى للدهن . ولكن قد يرى البعض أنه ينبغي لنا ألا ننفل إغفالا عما تعرض السوق وهو أن الجسم والذهن ينبغي أن يصحب أحدهما الآخر على الدوام ، مادام هذا الحكم متبنا على التجربة السوية وهي المرشد الوحيد الذي ترى أنت اتباعه في هذه الأبحاث اللاهوتية جميعا . وإذا كنت تزعم أن تجربتنا المحدودة هي مقياس خير عدل لحكم به على مدى الطبيعة الذي لاحد له فالك انتنل تخليا تاما من فرضك الخاص وينضم عليك حينئذ أن تؤثر صوفيتنا - كما تدعوها - ونسلم بعدم فهم مطلق للطبيعة الإلهية .

وعلى ذلك إذا رأينا من فرجة في حائط جزء أصغرا من الشمس خلطنا بأنه إذا انزاحت الحائط استطعنا أن نرى الجسم كله .

والآن إذا استعرضنا العالم - بقدر ما يقع تحت معرفتنا - نرى تشابها عظيما يجري بينه وبين حيوان أو جسم عضوي ويبدو متاربا ببدأ مشابه للحياة والحركة ، ودورة متصلة للمادة فيه لا يتولد عنها خلل ما ، وغساد متصل في كل جزء يوحش عنه - دون انقطاع - تعاون وثيق تدرك في جواب النظام بنامه . وكل جزء أو عضو يعمل في ابحاز ووظائفه الخاصة لمفط بقاءه وحفظ بقاء الكل .

وعلى ذلك نخلص بأن العالم حيوان والإله نفس الحيوان تثيره وتثار به . وأنت يا (كلياتس) قد بلغت حدا عظيما من المعرفة بمسلك تدش لهذا الرأي الذي - كما تعلم - قد أخذ به - على الأغلب - كل المؤمنين في الصور القديمة ويطلب بوجه خاص في أحاديثهم واستدلالاتهم . إذ وإن يكن الفلاسفة القديس يستدلون أحيانا من المال العائبة كالوكانوا يحسبون العالم العمل الإنسان قد . يد أنه يبدو بالآخرى أن تصويرهم المفصل هو اعتبار العالم جسدا له يجعله تكوينه العضوي مروسا له . ويلزم أن نمتزق بأنه كما أن العالم أشبه بجسم بشري منه بأعمال الفن والابتداع البشري ، فكذلك - إذا أتبع لتفكيرنا المحدود أن ينسحب على تصور من الصحة على الطبيعة بأسرها - يبدو الاستدلال أحسن في جانب النظرية القديمة منه في جانب النظرية الحديثة .

(كلياتي) : أنا أسلم بأن هذه النظرية لم تكن لي من قبل قط مع أنها نظرية طبيعية على التعريب ، ولست أستطيع - عن لحم وتفكير نصيرين - أن أسوق - في الحال - أي رأى جديدها .

(فيلون) : سقا ، أنت كثير الارتباب ، فإذا كان لي أن أخلص أي مذهب من مذاهبك لما كنت أقبت بنصف ذلك الحذر والحفظ في المبادرة بالاعتراضات والاشكالات عليه ، وأيا كان فإذا عن لك شيء ما فلا مفر من النظر فيه حين نمرحه .

(كلياتي) : لم إذن يدو لي أن العالم وإن يكن يشبه في كثير من الملاحظات جسمًا حيوانيًا إلا أن التشييل ناقص أيضا في كثير من الملاحظات البالغة أقصى حد من المادية : لا أحد من أعضاء الجسم أو دعامة الفكر أو العقل بأصل صحيح للحركة والفعل . وبالأجل إن العالم يبدو أشبه بجسم نبات منه بم حيوان ومن ثم يبدو استدلالك فيما يخص بنس العالم استدلالا عتيا .

ثم إن نظريتك تبدو مطلوبة على سرمدية العالم ، وهذا مبدأ أظن أن في الوسع حصه بأقوى الاستدلالات والاحتجالات . وسأفصح لهذا النرض حجة أعتقد أن أحدا من الكتاب لم يثبت عينا ، فأولئك الذين يستدلون من المصدر الأخير للفنون والعلوم قد يدحض استدلالهم - وإن لم نورد القوة - باعتبارات مستمدة من طبيعة المجتمع البشري ، وهو في ثورة متصلة بين الجهل والمعرفة ، بين الحرية

والعبودية ، بين الغنى والفقر ، حتى أنه يستحيل علينا - من تجربتنا المحدودة - أن نتنبأ في استيقظ بالمحادثات التي يمكن توقعها أو التي لا يمكن توقعها . ويبدو أن العلم والتاريخ القديمين كانا في خطر عظيم من الهلاك التام بعد طرفان الأمم البربرية ، ولو استمرت هذه التهورات مدى أطول قليلا أو كانت أشد ما كانت عليه لما كان في وسعنا - على الأرجح - أن نعرف الآن ما جرى في العالم لقرون قليلة قبلنا . أجل ما لم يكن الفضل خرافة الباطرات الذين حاضروا على القليل من الرطاة اللاتينية ليدعوا مطهر كنيسة قديمة عالمية ، لكان حتما فقدان هذه اللغة ، ولكن العالم العريق - في هذه الحالة - بربريا بأجمه ، ولما كان له استعداد صالح لتقبل اللغة والسم الاغريقي اللذين حملتا اليه بعد نهب القسطنطينية . ونحن خيا ضوء العلم كانت الفنون الآلية نفسها خلية بأن تدثر اندثاراً بالما . ومن البسير أن نتخول أن الخرافة أو التقاليد قد جعلت لنا أصلا متأخرا عن أصلها الحقيقي . ومن ثم فهذه الحجة السوقية ضد سرمدية العالم تدو على شيء من الخطر . ولكن هنا تظهر دعامة لحجة أفضل . لقد كان (فوكوس) أول من استحضر أشجار الكرز من آسيا إلى أوروبا ومع ذلك فذلك الشجرة تنصب خصيا طليا في كثير من الاجزاء الأوروبية حتى انها تنمو في العابات دون زراعة . إن من الممكن أن أحدا من الأوروبيين لم يجر آسيا منذ الأزل ولم يفكر في استقدام مثل هذه الفاكهة اللذيذة إلى بلده ؟ أو ، إذا كانت الشجرة قد استخدمت مرة واحدة ففكيف أمكن بعد ذلك أن تفرص ؟ قد تنبض الاميراطوريات وتندثر وقد تتعاقب الحرية والعبودية واحدة بعد الأخرى وقد ينزلى الجهل والمعرفة ، ولكن

ستظل شجرة الكرز في غابات اليونان وآسيا وإيطاليا ، ولن تتأثر قط بثورات المجتمع البشري .

لم يحس ألفا عام منذ استخدمت الكروم إلى فرنسا ومع هذا فليس ثمة مناخ في العالم أصلح لها من مناخ فرنسا . ولم يحس ثلاثة قرون منذ أن عرفت الجياد والبقر والخراف والخنازير والكلاب والقط في أمريكا . ومن الممكن أنه في غضون ثورات أول يأكله لم يظهر قط (كولومبس) بفتح الاتصال بين أوروبا وتلك القارة ؟ كذلك نستطيع أن نتخيل أن الناس جميعا قد يكونون ارتدوا الجوارب منذ عشرة آلاف عام ولم يكن لديهم البتة احساس بحسهم يفكرون في أربطة ربطها . كل هؤلاء تبدو أدلة مقنعة على شباب العالم ، وبالأحرى طفولته ، ذلك العالم المبنى على من مبادئ أكثر اطرادا وثباتا من المبادئ التي تصمم المجتمع البشري وكسيره .

ليس شيء أقل من انقباض تام للعناصر ، يهلك كل الحيوانات والنباتات الأوروبية التي جدها الآن في العالم الغربي .

(فيلون) : وأية حجة لك على هذا الانقباض ؟ إن الأدلة القوية - التي تكاد لا تقبل الدفع - على أن كل جزء من هذه الكرة قد استمر حقا عديدة منطية تامة بالماء ، هذه الأدلة يمكن أن نجدتها على الأرض كلها . وإن يسكن من المفترض أن نظام غير متصل عن المادة ومنطع فيها إلا أن المادة قد تنحصر للكثير من التقلبات العظيمة

خلال عهود لانهاية لها في الزمان الأزلي . وإن التغيرات المنعصلة التي يخضع لها كل جزء فيها تبدو موطدة لبعض التحولات العامة وإن يكن من المدهوظ في عين الوقت أن كل التغيرات وضروب الفساد التي قيصت لنا تجربة بها إن هي إلا عرات من حالة للنظام إلى حالة أخرى ولو يسع المادة قط أن تظل في تقويه واختلاط تام . وإن ما نشاهده في الاجزاء يمكن أن نشه إلى الكل ، وهذا - على الأقل - منيع الاستدلال الذي نقيم عليه نظريتنا كلها . وإذا كنت مصطرا أن أدود عن أي مذهب خاص من هذا القبيل - وليس هذا ما سأفعله قط طامعا - فليست أقدر أحدا من المذاهب أصوب من ذلك الذي يقبب مبدأ للنظام لازما للعالم لزوما أزليا - وإن يكن مصحوبا بتقلبات وتحولات عظيمة متصلة . هذا يحمل من فوره كل الاشكالات ، وإذا كان الحل - لكونه عاما جدا - ليس مستكلا ولا مقنعا على وجه تام فهو - على الأقل - نظرية يلزم لنا أن نستعين بها أجلا أو عاجلا أيما كان المذهب الذي ننتهق . كيف أمكن للأشياء أن تكون على ما هي عليه إن لم يكن هناك في الفكر أو في المادة مبدأ للنظام أصلي منطع ؟ ويستوى لدينا أن نخص أحدا منهما بالتفصيل عن الآخر . وليس للصدقة موضع في أي فرض شك أو دين . كل شيء تحكمه - على التأكيد - قوانين ثابتة لا تتغيرق . وإذا انكشف لنا جوهر الأشياء الكامن لكان في وسعنا أن نكشف مشيدا لسنا نستطيع أن يكون لنا الآن فكرة عنه . فبدلا من أن نجيب بنظام الموضوعات الطبيعية ينبغي لنا أن نرى بجلاء أنه كان من

(إيات أو توالد أعظم شها بالعالم من أية آلة صناعية تنشأ من العقل والتدبير ؟

(دميان) : ولكن ماهما ذاك الإيات والتوالد اللذان تحدث ههنا ؟ هل نستطيع أن نقرر عملياتهما ونشرح هذا البناء الباطن الدقيق الذي تعتمدان عليه ؟

(فيلون) : بقدر ما يستطيع (كلياتس) أن يفسر عمليات العقل - على الأقل - أو يشرح ذلك التركيب الباطن الذي تعتمد عليه . ولكنني دون أي بحث من البحوث الناضجة أجد أنني عند ما أرى حيرانا أستخلص أنه نشأ من توالد ويحدث هذا بنفس القدر العظيم من اليقين الذي نستخلص به أن مولا شيد بالرسم . هذه الكليات من توالد وعقل تدل وحسب على قوى ومخالفات معينة في الطبيعة آثارها معلومة ولكن جوهرها غير مفهوم ، وليس لواحد من هذه المبادئ ميزة على الآخر تجعل منه معياراً للطبيعة بأسرها .

والحق يا (دميان) قد يكون من المعقول أن نتوقع أنه كلما كانت نظراتنا التي نستمدّها من الأشياء أوسع كانت هدايتنا في نتائجنا في مثل هذه الموضوعات الحارقة الزائفة أفضل . في هذا الركن الضئيل من العالم مبادئ أربع هي العقل والبرزخ والتوالد والإنبات ، يشبه كل منها الآخر وهي حلل لمحاولات متشابهة . وأي عدد من المبادئ الأخرى - قد تقترحه - في امتداد العالم الشاسع وتوجهه إذا كان

لنا أن نرحل من كوكب إلى آخر لنفحص كل جزء من هذا المصنع الضخم ؟ وأي واحد من هذه المبادئ الأربع السالف ذكرها - ومئات أخرى في متناول ملكاتنا - قد يودعنا نظرية تحكم بها كل أصل العالم ومن التحزب الواضح المسرف أن نقصر نظرتنا قصراً تاماً على ذلك المبدأ الذي تصل به أذهاننا . وإذا كان ذلك المبدأ أهمل في ذلك الموطن لكان هذا التحزب معقولاً إلى حد ما ، ولكن العقل في تركيبه وبنيته الباطنة يطلع - حقاً - في مسألة معرفتنا له مبلغ البرزخ أو الإنبات ؛ ودعنا لم تكن تلك الكلمة المبهمة غير المتحدة أعني الطبيعة التي يرد السذج إليها كل شيء ، دعنا لم تكن أيضاً في قرارها أشد استعصاء على التفسير . إن آثار هذه المبادئ كلها مبرورة لنا من التجربة ولكن المبادئ ههنا وطريقة عملها مجهولة جهلاً تاماً ، وليس القول بأن العالم نشأ بالإنبات من بذرة نثرها عالم آخر بأقل موافقة واتساق مع التجربة من القول بأنه نشأ من عقل أو ابتداء إلى مقتضى الحق الذي يفهمه عليه (كلياتس) .

(دميان) : ولكنني أظن أن العالم إذا كان كفيّة نباتية وكان في مقدوره أن يبدد بذور حوامل جديدة في ميوه لا تنتامية لكسات هذه القوة حجة ثانوية على التدبير في صاحبه . وإلا فإن ابن نشأ مثل هذه المسألة بالغة الروعة إن لم يكن من التدبير ، أو كيف يمكن لنظام أن ينشأ من شيء ما لا يدرك ذلك النظام الذي يضعه ؟

(فيلون) : لا يبررك إلا أن تدبر النظر حولك حتى تفتتح أم

نفسك بهذا السؤال . إن الشجرة لتضع النظام والنهوض للفجرة التي تثبت متبادون أن تعرف النظام ، وعلى البحر نفسه يهمل الحيوان مع وليده والظائر مع عشه . وإن الأمثلة من هذا النوع لا أكثر في تعددها في العالم من الأمثلة على النظام الذي ينشأ من العقل والابتداء . وإن القول بأن هذا النظام كله ينجم بصفة نباتية عن التدرج لموافقنا للنسب الذي تقابل منه ، وكذلك ليس يمكن الاستيقاق من هذه النقطة اللهم إلا بالتدليل تدليلاً أولياً على أن النظام بطبيعته مرتبط ارتباطاً لا فكاك منه بالفكر وأنه لا يمكنه قط - من نفسه أو من مبادئه أصيلة مجهولة - أن ينسب إلى المادة .

ولكن يا (دميان) ودعني هذا أن هذا الاعتراض الذي تمهده لا يمكن قط (لكلياتس) أن ينفع به دون أن يتخلل عن دواع قد واجه به من قبل أحد اعتراضات فندما بحثت في عقل ذلك العقل والدكاء الاسمى الذي يقول عليه في كل شيء ذكر لي أن استحالة استيفاء مثل هذه الأبحاث لا يمكن أن توخذ البتة على أنها اعتراض في أي صرب من صروب الفلسفة . إنه يقول ينبغي أن نتوقف في مكان ما وليس في متناول القدرة البشرية قط أن تفسر العقل النباتية أو تبين الارتباطات الأخيرة بين الموضوعات . وبكيفية أن تكون الخطوات - على مدى سهرناجا - مدعومة بالتجربة والملاحظة . والآن من غير المشكور أننا قد جربنا أن الإنبات والتوالد - شأنهما شأن العقل - هما من مبادئ النظام في الطبيعة . فإذا كنت أرتكب بذهني في بدء الخليقة على الأولين

مفصلين على الأخير فهذا أمر لي الخيرة فيه . يبدو أن الموضوع تام النصف ولكن عندما يسألني (كلياتس) عن عقل ملكتي التوالدية النباتية العظيمة فيقول لي أيضاً إن أسأله عن عقل ملكته العقل العظيم . هذه المسائل قد اتفقتا أن نتجنبها من جانبيها ، وانتهيه في الطرف الحاضر - هو على الأخص - أن يلامر هذا الاتفاق . لو حكمتنا بتجربتنا الناقصة لكان التوالد بعض الميزات على العقل ، إذاً نشاهد الأخير - كل يوم - ينشأ من الأول ، ولنا شاهد الأول - قط ينشأ من الأخير .

إنني لأصرح إليك أن تقارن نتائجك على الجانبين . إنني لأقول إن العالم يشبه حيواناً ومن ثم فهو حيوان ومن ثم قد نشأ من التوالد . وإنني لأعترف أن الخطئ واسعة يد أن ثمة مظهراً مثيلاً للتوالد في كل خطوة . و (كلياتس) يقول إن العالم يشبه آلة ومن ثم فهو آلة ومن ثم قد نشأ من التدبير . والخطئ ههنا متسعة كذلك والمائلة أقل قوة . وإذا ادعى المصطفى بفرصتي خطوة إلى الأمام واستدل على التسدير أو العقل من مبدأ التوالد العظيم الذي أقرره لكان لي بسند أفضل أن أستعمل الحرية ههنا لأدفع بفرصه قدما وأستدل على توالد إلى أو نشأة إلهية من مبدئه من العقل . لدى - على الأقل - بعض ظل واضح من التجربة هو غاية ما يعني أن ألبه في الموضوع الحال . فن الملاحظ في أمثلة لاحصر لها أن العقل ينشأ من مبدأ التوالد وليس بشأ قط من أي مبدأ آخر . لقد أثر هذا التماثل في (هوبود) وكل

رجال الأساطير القدامى تأثيراً بالغاً حتى أنهم قد فسروا أصل الطبيعة تفسيراً كلياً من موله حيوان أو من جماع . وأفلاطون أيضاً - بقدر فهمنا له - يبدو أنه قد أثر ما يقرب من هذا التصور في (طيمائوس) (١) .

ويزعم البراهمة أن العالم قد نشأ من عنكبوت لانهائي يحزل من حشاه هذه الكتلة المعتمة ، شتياً وهدماً كلياً بعد ذلك أو هدم أى جزء مما بالتمامه ثانية ، وإحالة إلى جوهره الخاص . وهنا ضرب من ضروب هذه الخليفة يظهر لنا عتاشاً على السحر إذ أن العنكبوت حيوان مثيل حقير لا يعمل قط أن تجعل عملياته نموذجاً للعالم برمتة . ولكن ما روح - هنا - ضرب جديد من المبالغة حتى في كوكبنا . وإذا كان هنالك كوكب تقطعه بكافته عنكب - وإذا كان جذاً - لظهر هذا الاستدلال مثالبه طليعاً لا يدحض ، مثله في ذلك مثل ذلك الاستدلال الذي ينسب أصل الأشياء جميعاً - في كوكبنا - إلى التدمير والبناء كما فسّر ذلك (كلياوس) . لم لا يمكن أن يزول من المدة نظام منظم كما يزول من الدماغ . سيكون من العسير عليه تقديم سبب مقنع لهذا .

(كلياوس) : يجب أن أحرف يا (فيلون) أنك من بين جميع الناس الأجباء براءتك خير موافقة هذا العمل الذي أخذته على عاتقك

(١) يمكن بها أفلاطون قصة تكوين العالم كما قبله . (القرصم)

ألا وهو إثارة الشكوك والاعتراضات ، ويبدو لك على نحو ما طبعاً لا سبيل لك إلى اجتنابه . إن خصب أمكانك ليبلغ من العظم مبلغاً لا أخجل معه أن أعترف بقصوري - جلاءً - عن أن أحل بانتظام تلك الاشكالات الخارجة عن طريقنا والتي تلقينا في وجهي دون انقطاع . بيد أنني أرى في جلاء بطلانها وخطأها بوجه عام . ولست أرتاب في أنك أنت نفسك في نفس حالتي الآن وليس لديك الحل معداً شأن الاعتراض بينما يلزم لك أن تشعر أن الذوق السليم والعقل ياتقنانك ماضية تامة وأن مثل تلك الأوهام التي سقتها قد تبلبل ساطرتنا ولكنها لم تقهنا قط .

الفصل الثامن

(فيلون) : إن ما نسبته إلى خصب أمكانى يرجع الفضل فيه بتمامه إلى طليعة الموضوع . ففي الموضوعات المناسبة لمأثرة العقل الصبغة ، ليس هنالك بوجه عام إلا تحديد واحد يجعل معه الرجوع إلى الاقتناع ، وعند رجل الحكم الصحيح تظهر كل الافتراضات الأخرى ما عدا ذلك التحديد باطله وأهمه . ولكن في مثل هذه المسألة الرامنة ثمة مئات من وجهات النظر المتنافسة - قد تحتل بنوع من المنة الخاصة ويكون للابتكار هنا مجال طليق لبذل جهده . وإنى لا اعتقد أن في وسمي - دون مبالغة - كبير في الفكر - أن أقترح مذاهب أخرى لبده الحقيقة قد يكون لها مظهر وأهن من الحقيقة وأن يكون مذهبك أو أحد مذاهبي هو المذهب الصحيح في ألف فرض أو مليون ضد واحد .

مثلاً ماذا على إذا ائتمت الفرض الإيقوري القديم ؟ لقد عهد هذا الفرض بوجه عام ويحق - كما اعتقد - أكثر المذاهب المقترحة بطلاناً ، بيد أنني لست أدري ما إذا لم يكن من الممكن بقليل من التعديلات أن يكون له مظهر وأهن من الرجحان . فبدلاً من افتراض المادة لامتناهية كما فعل أيقوروس لنعرضها متناهية . ويلزم أن يحدث

في استمرار سرمدى أن كل نظام أو وضع يمكن لا بد أن يشكل عدداً لا متناهياً من المرات . ومن ثم هذا العالم بكل أحواله وبادقها أيضاً قد تركه من قبل وانتهى وسيؤول بعدوهم دون أية حدود وتحددات ولن يرتاب أحسب - بمن له تصور عن قوة اللامتناهى إذا تهورت بالنهاي - بهذا التحديد

(ديان) : ولكن هذا يفترض أن في وسع المادة أن تكسب الحركة دون أى عامل حر أو محرك أول .

(فيلون) : وأبنت في صعوبة هذا الافتراض ؟ إن كل حادثة قبل التجربة صعبة غير مفهومة على السواء ، وكل حادثة بعد التجربة سهلة مفهومة على السواء . إن الحركة - في كثير من الآثقة - في الممازية في المرونة ، في الكهرباء ، تبدأ في المادة دون أى عامل سر معروف ، وافترض حامل سر مجهول دائماً في هذه الحالات هو بعض فرض ، والفرض لا تصحبه فوائد ما . إن بداية الحركة في المادة نفسها أمر متصور تصوراً أو شيئاً شأنه شأن انتقال الحركة من الدهن إلى الذكاء .

ثم لم لا يمكن أن تكون الحركة قد انتشرت بالذبح خلال الأزل كله ، ولا يزال المذخور منها - أو ما يقرب منه - قائماً في العالم ؟ فيقدر ما يقدر في تأليف الحركة بقدر ما يكسب بالاعلامها . وأيا كانت العمل ، فالواقع يقينا أن المادة هي - وقد كانت دائماً - في امتزاج متصل بقدر ما تصل إليه التجربة أو العرف البشري . والآن ليس هنالك

- على الأرجح - في كافة أنحاء العالم جوية واحدة من المادة في مورد مطلق .

• سنأخذ أولاً •

وهذا الاعتبار عنه الذي وقفنا عليه في سياق الحقبة يوحى أيضاً بفرض جديد عن بدء الخليقة ليس باطلاً بطلاناً مطلقاً وغير محتمل . هل هناك منق أو نظام أو تدبير بين الأشياء يمكن للمادة أن تحافظ به على الامتزاز الدائم الذي يبدو جوهرياً لها بل وتبقى كذلك على أطراف في الصور التي تولدها؟ هناك يقينا مثل هذا التدبير إذ أن هذه في الواقع جوهرية العالم الراهن . ومن ثم فالحركة المتصلة في المادة - في أقل من تغيرات لا متناهية - يلزم أن تولد هذا التدبير أو النظام ويرجع إلى طبيعتها ذاتها . إن النظام حين يوسع يدعم ذاته إلى عصور عديدة إن لم يكن إلى الأبد . ولكن حينها ووزنت المادة ورتبت وتوافقت بحيث تواصل حركة دائية وتحفظ مع هذا بإفراد في الصور يلزم أن يكون لخالقها بالضرورة نفس مظهر النفس والابتسام الذي تلاحظه الآن . ولزم أن يكون لأجزاء كل صورة جميعاً علاقة بين الواحد منها والآخر وبينها وبين الكل . ويلزم أن تكون هناك علاقة بين الكل نفسه وبين أجزاء العالم الأخرى وبينه وبين المصدر الذي يقيم به وجهه وبين السواد التي يستعيد بها ما يفقده وما يفقد منه ويته وبين كل صورة أخرى مباينة له أو موافقة . وإن تنصا في أي حزمة من هذه الجزئيات لبهم الصورة وتطلق المادة المزلفة منها الصورة على حريتها

من جديد ومندفع في حركات وتورات مضطربة إلى أن تجد صورة أخرى منتظمة . وأن لم تكن مثل هذه الصورة ممتدة لاستقبالها وإذا كان في العالم كمية عظيمة من المادة المساعدة لكان العالم نفسه مضطرباً اضطراباً تاماً سواء أكان المهيم على هذا النحو حينئذ العالم الضعيف في بداياته الأولى ، أو هيكله بالياً لعالم واهن عن عمره حتى ويسقط . وعلى أية حال تنشأ هيولى إلى أن تولد التورات المتناهية - وإن يكن لا حصر لها - في النهاية بعض الصور تتوافق فيها الأجزاء والأعضاء وتوافقاً يجعلها تدعم الصور وسط تعاقب متصل للمادة .

لنعرض - إذ سنحاول أن نوضح في التفسير - أن قوة عمياء خاشعة قد دفعت المادة إلى وضع ما ، هي الواضحة أن ذلك الوضع الأول يلزم - على كل احتمال - أن يكون أقصى الأوضاع اختلاطاً واضطراباً دون أي مشابهة به . وبين أعمال الابتداء العنيفة التي تكشف إلى جانب تناسب الأجزاء توافقاً بين الوسائل والمباينات وتوجه إلى وقاية البات ، وإذا توقفت القوة والحركة بعد هذه العملية لازم أن تظل المادة في اضطراب إلى الأبد وأن تستمر هيولى مضطربة دون أي تناسب أو نشاط . ولكن إذا فرضنا أن القوة المحركة - أيا كانت - لازالت مستمرة في المادة لأفصح هذا الوضع الأول - في الحال - السبيل إلى وضع ثان سيكون كذلك - على كل احتمال - شأنه شأن الأول في اضطراب ، وهكذا خلال تغيرات وتورات متعاقبة عديدة . وليس ثمة نظام أو وضع خاص يستمر لحظة دون تغير . والقوة

الأصلية ما - حيث مواظبة على نشاطها تجعل المادة في قلق دائم وكل حالة يمكنه تولد وتهديم في الحال وإذا لاحظت في لحظة ما بارتة أو جرم من نظام فسرعان ما يبدده وتشرشه تلك القسوة التي لا تقتر والى تحرك كل جزء في المادة .

وعلى هذا النحو يعض العالم عصوراً عديدة في تعاقب متصل من الهيولى والاضطراب . ولكن أليس من الممكن أن يستقر العالم في النهاية بحيث لا يفقد حركته وقوته لمداخلة - إذا كنا افترضنا كونها لازمة له - وحتى يحتفظ في مظهره بالنسق وسط حركة متصلة وتوحد في أحواله ؟ هذا ما نجد عليه حالة العالم الآن . فكل فرد بتعبير تمييزاً دائماً وكل جرم في كل فرد ومع ذلك يظل الكل في مظهر واحد . أليس في وسنا أن تأمل مثل هذا الوضع أو بالأحرى نستوحي منه من التورات الأبدية في القوة الطائفة وهلا يمكن أن يفسر هذا الحكمة والابتداء الباديين في العالم ؟ لنأمن شيئاً ما في هذا الموضوع بعد أن المادة إذا بلغت هذا التوافق بين الثبات البادى في الصور والثورة أو الحركة الزائفة في الأجزاء أمداً ذلك بجل صائب - إن لم يكن حقيقياً - للمشكلة .

وعلى ذلك من نافلة القول أن نصر على فوائد الأجزاء في الحيوانات والنباتات وتوافقها السجيب فيما بينها . إنى لأننى أن أعرف كيف يستطيع حيوان البقاء أن لم تكن أجزاؤه متوافقة على هذا النحو؟ ألسنا نجد أنه هناك في الحال عندما يتقطع هذا التوافق وأن مادته المتحلة

تشكل بشكل جديد . بل ويحدث أيضاً أن تكون أجزاء العالم متوافقة توافقاً طيباً حتى ليطالب شكل جديد منتظم هذه المادة المتحلة . وإذا لم يكن الأمر كذلك قبل في وسع العالم البقاء ؟ أليس يلزم أنه ينحل - شأنه شأن الحيوان - ويصير إلى أوضاع وحالات جديدة إلى أن يقع في البداية - بعد تعاقب عظيم وإن يكن متناهي - في النظام الحالي أو شيء مماثل ؟

(كلياتش) : لقد أحسنت متنا حين ذكرت لنا أن هذا الفرض قد عن لك جاء في سياق الحقبة . فإذا كان لديك فسخة من الرقت لفحصه لسرعان ما تقين اعتراضات قشيرة يترض لها . أنت تقول أن ليس ثمة شكل يمكنه أن يبقى ما لم يكن مزوداً بذلك القوى والأعضاء اللازمة لبقائه . ويلزم تجربة نظام أو تدبير جديد وهلجراً دون انقطاع إلى أن تقع في النهاية على نظام ما في وسع أن يدعم ذاته ويبقى فيها . ولكن - بمقتضى هذا الفرض - من أين تنشأ المزايا الكبيرة والمتنوعة التي للأناس والحيوانات جميعاً ؟ عيتان الأذنان ! ليس هذه ضرورية ضرورية مطلقة لبقاء النوع . ينبغي أن يكون الجنس قد انتشر من غير جياذ وأبقار وخراف وتلك الفواكه والمنتجات التي لا حصر لها والتي نعين على أراضائنا وامتاعنا . إذا لم تخلق نوى لفائدة الإنسان في صحارى إفريقيا وبلاد العرب الرملية أكان العالم ينحل ؟ وإذا لم يكن هناك حجر المناطيس يجعل للإبرة ذلك الانحناء المفيد الرائع أكان

المهمة والدة الشرير بيدان في المادّة المادّة الطبيعية
شحيمة بوجه عام يد أن أمثلة من هذا اللون هي أحد من أن تكون
نادرة ، وأن أياً منها لدليل كاف على التدبير بل وعلى التدبير الكريم
الذى أتاح الظهور للنظام والتدبير في العالم .

(فيلون) : يمكنك - من الآن - أن تحصل بأن الفرض السالف
يبلغ من النقص وعدم الاستكمال حداً بعيداً وهذا ما لن أتردد في
التعليق به ولكن هل يمكننا أن نتوقع - نوقماً معقولاً - نجاحاً أعظم
في مثل هذه المحاولات ؟ أو هل لنا أن نأمل في تشييد مذهب لهذه
الخليقة لا يقبل أية استثناءات ولن يشتمل على ملازمة ما تتلفر مع
تجربتنا في التنبؤ في الطبيعة تلك التجربة الناقصة المحدودة ؟ إن نظريتك
ههنا لا يمكن أن تدعي مثل هذه الميزة حتى وإن كنت قد وقعت في
مذهب المشبه ، وهو خير مما يجعلك تحافظ على توافق مع التجربة العامة .
لنضع مرة أخرى موضع التجربة . ففي جميع الأمثلة التي تها لنا مشاهدتها
تجد أن الأفكار نسخ من الموضوعات الواقعية وهي - لكن أعيش تعبيراً
عليها - تقليدية وليست نماذج أساسية : لقد عكست هذا الفسق وجعلت
الحق ففسد ، وفي جميع الأمثلة التي تها لنا مشاهدتها ليس للفكر نفوذ
على المادة اللهم إلا حيثما كانت المادة مقترنة به بحيث يجري بينهما نفوذ
متبادل متبادل . وليس ثمة حيوان يستطيع أن يترك أى شيء محريكاً
مباشراً اللهم إلا أطراف يده الخاص ، بل وتبادل الفعل والرجح يبدو
تأثيراً كلياً في الطبيعة . ولكن نظريتك تناقض هذه التجربة . هذه

الأمثلة - إلى عديد غيرها كان من اليسور جميعاً وعلى الأخص
افتراض ذهن أو نظام للفكر أو بعبارة أخرى حيوان خال لا يبنى -
تعملاً جميعاً الأثران حين يلوم أحدهما الآخر وتربطاً أنه إذا كان لا يبنى
أن تقبل أى مذهب من هذا النوع - من تمثيل ضئيل - فكذلك
لا يبنى نتيجة أى مذهب استناداً إلى عدم تلاؤم بسيط منه . إذ أن هذا
شغل لن نستطيع أن نقول - بحق - إن أحداً يعلم به .

ومن المتروك به أن المذاهب الدينية جميعاً موضوع لمحاكم
طبيعية لا تقهر . وكل مساجيل يظهر بدورها بيننا يشن حرباً صهيونياً
ويعرض أباطيل خصمه وبربريه وعقائده المفسدة ، ولكنهم جميعاً
- على الجملة - يهدفون ظفراً كاملاً لثأرك الذي يقول لم إنه ليس
ثمة مذهب يبنى اعتناقه صدد هذه الموضوعات لهذا السبب الواضح
وهو أننا لا ينبغي أن نقبل طلاقاً ما يصدر أى موضوع . والملازمة
المعقول الوحيد - ههنا - هو تشييق تام للحكم . وإذا نجح كل
اقتضاض وفعل كل دفاع بين رجال الدين يا قصر التام لذلك الذي يبق
دائماً مع الناس جميعاً متخذاً خطة الهجوم وليس له حالة مستقرة أو مقتر
ما يجب عليه أن يُدافع عنه ؟

الفصل الرابع

(ديمان) : ولكن إذا كان ثمة اشكالات تصبب الحجة البعيدة
ألم يكن أفضل لب أن تتبع تلك الحجة الأولية البسيطة الرقيقة التي إذ
تمتدنا يرهان لا خدأ فيه تقطع دفنة واحدة كل شك وإشكال ؟
وهذه الحجة أيضاً يمكننا أن ندلل على لا نهائية الصفات الإلهية التي
أخفى ألا يمكن ألبنة تأكيدها يقين مستمد من أى موضوع آخر .
إذ كيف يمكن لمعول متناه - وينبغي لنا أن نعرف أنه كذلك -
أن يدل على علة لا متناهية ؟ كذلك من الصعب جداً - إن لم يكن
من المستحيل إطلاقاً - أن نستخلص وحدة الطبيعة الإلهية من تأمل
لأعمال الطبيعة وحسب ، ولن يمدنا اتفاق الحجة وحده - حتى إذا
سلنا به - أى استثنائاً عن تلك الصفة . فبينما الحجة الأولية

(كليانس) [يتنفس] ...

يبدو يا (ديمان) أنك تستدل كما لو كانت تلك المرات والقرائد
في الحجة المبردة أدلة مستوفاة على نتائجها . ولكن عدنى أن من
المناسب أولاً أن نقارر إحدى هذه الحجج وثبت عليها ، وسنحاول
فيها بعد - من الحجة نفسها غيراً من أن نحاول من نتائجها النافعة -
أن نعين القيمة التي ينبغي أن نحصلها بها .

(ديمان) : إن الحجة التي سأثبت عليها هي الحجة العامة . كل
ما يوجد يلزم أن تكون ثمة علة أو سبب لوجوده ، فيستحيل إطلاقاً
على شيء ما أن ينتج ذاته أو أن يكون علة لوجوده الخاص ، وعلى ذلك
مستد ما زلت من الملولات إلى اللال يلزم لنا إما أن نحصى في تتبع
تعاقب لا متناه دون علة ما نهائية على الإطلاق ، أو يتضم علينا في النهاية
أن نلوذ بملازمة هائلة ما توجد وجوداً ضرورياً ، والآن يمكن للتدليل
بذلك على جلال الافتراض الأول ، ففي السلسلة اللامتناهية أو التعاقب
اللامتناهي للعلل والملولات ثمة قوة أو فاعلية في تلك العلة تهيء الملل
لوجود . ولكن السلسلة أو التعاقب بكميته مأخوذاً مما ليس مياً أو
حسبياً عن أى شيء . ومع ذلك فن الواضح أنه يقتصر على علة أو سبب بقدر
ما يقتصر إلى ذلك أى موضوع جزئياً يبدأ وجوده في الزمان . ولا
يزال من المعقول أن نسال لم وجد هذا التعاقب الخاص منذ الأزل
ولم يوجد أى تعاقب آخر غيره أو لم يوجد تعاقب على الإطلاق
وإذا لم يكن ثمة موجود قد وجد وجوداً ضرورياً لاستوى في
الإمكان أى افتراض يمكن صياغته ، ولما كان هنالك جلال أكثر
في القول بالأشياء قد وجد منذ الأزل منه في القول بذلك التعاقب
العلل الذي يتكون العالم . فإذا كان إذن هذا الذي هيا شيئاً ما للوجود
منفصلاً لا لشيء ووجب الوجود لامكان خاص ونهائى عن الباقي ؟
من المفروض أن ليس ثمة علل خارجية والصدقة كلة خلو من المعنى .
أكان لا شيء ؟ ولكن هذا لا يسهل قط أن يتبع أى شيء . وعلى

ذلك يتعمد علينا أن نلزم بوجود واجب الوجود يجعل في ذاته سبب وجوده ولا يمكن افتراض كونه ليس موجودا دون تناقض صريح فهناك بالتالي مثل ذلك الموجود أعني إلها.

(كياش) : لن أذهب (فيلون) - وإن كنت أعلم أن المبادرة بالاعتراضات منته الكبري - أن يظهر ضعف هذا الاستدلال الميتافيزيقي فهو يبدو لي بجلاء متافا الأساس وفي حين الوقت مثيل النتيجة لقضية تقوى صادقة ودين صادق حتى أنني لأجسر على اظهار بطلانه.

سأبدأ بملاحظة أن هناك بطلانا في ادعاء البرهنة على أمر من أمور الواقع أو التبدل عليه بأي حجة أولية. ليس ثمة شيء قابل البرهنة ما لم يكن حده منطقيا على تناقض. وليس ثمة شيء متصور تصوراً متغيراً منطقياً على تناقض. وكل ما تصوره موجوداً يمكننا كذلك أن نتصوره لا موجوداً. وعلى ذلك فليس ثمة موجود يتلوى لوجوده على تناقض. وبالتالي ليس ثمة موجود وجوده قابل البرهنة. إني أعرض هذه الحجة على أنها حجة حاسمة وأنا أعزم أن أدير الجدل كله حولها.

لقد ادعى أن الله واجب الوجود وجوب وجوده هذا تحول تفسيره بالزم بأننا إذا عرفنا جوهره كله أو طبيعته كلها لكان لنا أن ندرك أن استحالة عدم وجوده بالنسبة إليه كاستحالة اثنين مكررة

مرتيز ألا تكون أرسا. ولكن من الجلي أن هذا لا يمكن أن يحدث أبداً ما دامت ملكاتنا تظل كما هي عليه الآن. سبيل من الممكن لنا أن نتصوره في أي وقت لا وجوداً كما تصورناه من قبل وجوداً، وليس ببعيد الذهن قط أن يتخضع لضرورة افتراض موضوع ما باتياً دائماً في الوجود على نحو ما تخضع لضرورة تصور اثنين مكررة أن تكون دائماً أرسا. وعلى ذلك فالكلماتان وجوب الوجود لا معنى لهما أو - وهذا هو الشيء عينه - ليس ثمة موادة فيهما

ولكن - زد على ذلك - لم يمكن أن يكون العالم المادي واجب الوجود بمعنى هذا التفسير المزعم للوجوب فأسنا نخرق على التأكيد بأننا نعرف كل كليات المادة أو - كما ينبغي لك أن تقرر - أنها قد تشمل بعض كليات أدارفت قد تجعل لوجودها يظهر تناقض يبلغ مبلغ التناقض في أن مكرر اثنين يساوي تمسا. وإني لأجد حجة واحدة لحسب تستخدم للتدليل على أن العالم المادي ليس واجب الوجود وهذه الحجة مستمدة من أن مادة العالم وشكله كلاهما شيء عارض. لقد قيل إن أي جزئية من المادة قد يتصور إنسانها وإن أي شكل قد يتصور تغييره. وعلى ذلك فمثل هذا الانعدام أو التغير ليس مستحيلاً. ولكن يبدو من التحيز الشديد ألا يدرك أن الحجة عنها تبسط كذلك على أنه يقدر ما يكون له يتصور عنه وأن الله يمكنه - على الأقل - أن يتحلى لا موجوداً أو أن يتحلى صفاته متغيرة. قد تكون بعض صفات مجرولة هيبة التصور تلك التي يمكنها أن تجعل لا وجوده يظهر

مستحيلاً أو أن تجعل صفاته ثابتة وليس يمكن تبيان سبب لكون هذه الصفات لا تنسحب إلى المادة. إذ لما كانت كلها مجرولة هيبة التصور فليس يمكن قط التبدل على كونها غير ملائمة لها.

أضف إلى هذا أننا في تتبع تناقض أولي للموضوعات يبدو لنا من الباطل أن نبحث عن علة عامة أو مانع أول. كيف يمكن لأي شيء يوجد منذ الأزل أن يكون له علة ما دامت هذه العلاقة تتلوى على سبق في الزمان وبداية في الوجود ؟

في مثل هذه البسلة أيضاً أوهنا التناقض بين الموضوعات كل جزء تمسب بما يسبقه وسبب ما يلحقه. فإين هو الإشكال إذن ؟ ولكذلك نقول أن الكل يتطلب علة وأنا أجيبك أن توحيد هذه الأجزاء في كل هو مثل توحيد مقاطعات متباعدة عديدة في علكة واحدة أو أعضاء متباعدة عديدة في جسم واحد. أقول هذا يتم بفعل نفس من الذهب وليس له أي تأثير على طبيعة الأشياء. ولو أنني أظهرتك على الملل الجوزية لكل فرد في مجموعة من عشرين جوزية للسادة لرأيت من غير المعقول أن تسألني بعد ذلك عن علة العشرين ككل. فهذا ما عسرته تصيرا وإني في تفسير لمة الأجزاء.

(فيلون) : وإن تكن الاستدلالات التي قدمتها يا (كياش) قد تفيين من أن أبادر بأشكال أخرى جديدة يد أني لا أستطيع أن أسمع نفسي إني من الزغرف عند موضوع آخر. لقد لاحظ علماء

الحساب أن مضاعفات العدد ٩ تتوالف دائماً إما ٩ أو مضاعفات أصغر العدد ٩. وإذا جمعت كل الأرقام التي تتألف منها المضاعفات السابقة. وعلى ذلك فن ١٨ و ٢٧ و ٣٦ وهي مضاعفات ٩ تتكون ٩ بإضافة ١ إلى ٨ و ٢ إلى ٧ و ٣ إلى ٦. وعلى ذلك فالعدد ٣٦ من مضاعفات ٩ أيضاً وإذا جمعت ٣ و ٦ و ٩ تتكون ١٨ مضاعفاً أصغر العدد (١).

وقد يجب ملاحظة سبب هذا الانتظام القائم على أنه أثر من آثار الصدقة أو التدبير ولكن عالم جبر حاذق يستنتج في الحال أنه على الضرورة ويرى على أنه يلزم أن ينتج ذلك دائماً من طبيعة هذه الأعداد. وأنا أنسال أليس راجحاً أن تدبير العالم كله مسير بضرورة عاتقة وعلى ذلك فليس ثمة علم جبر بشري يزودنا بمحتاج لحل الاشكال؟ وبدلاً من أن نسج نظام الموضوعات الطبيعية أليس يمكن أن يحدث أننا إذا امكنا أن نفض إلى طبيعة الأجسام الباطنة يمكننا أن نرى في جلاء لم احتمال استحالة مطلقاً أن تستطيع قبول أي وضع آخر؟ بالقناعة الخطر في ادخال فكرة الضرورة هذه في مسائلنا الحالية، وكما تمدا - بالطبع - باستدلال يتعارض تمارضاً مباشراً مع الفرض الذي.

[رسمي (فيلون) ١٩٧٧]

ولكن إذا استطعنا هذه التجريدات ججاً واقتصرتنا على الموضوعات الأكثر الفة واصفرتنا هذه الملاحظة وهي أن الحجة الأولية يتدر

أن يجدوها شديدة الإقناع لإحدى ذوى رأس ميتافيزيقي ألفوا الاستدلال المجرد ووجدوا من الرياضيات أن العقل كثيرا ما يهوى إلى الحقيقة وسط غموض وتمازج في مظاهره الأولى ، وقد نقلوا هذه العادة في التفكير إلى موضوعات لا ينبغي أن نجد لها مكانا بينها .

ولكن القوم الآخرين - حتى من ذوى الذوق السليم والمييل الصادق للدين - يشعرون دائما بقصور في مثل هذه الحجج ، ومع هذا قد لا يكونون قادرين على بيان موطن هذا التصور . وفي هذا دليل يثبت على أن الناس قد استمدوا دينهم - وسيظلون يستمدونه - من منابع أخرى غير هذا الاستدلال .

الفصل العاشر

(ديمان) : رأى هو التسليم بأن كل إنسان يشعر في صدره بحقيقة الدين على نحو ما وهو مقود - من وعى بجوانبه وشقائه منه عن أى استدلال - إلى توحى الحماية من ذلك الموجود الذى يشهد عليه وتمتد عليه الطبيعة كلها ، إن خير مشاهد الحياة لتشر الضعف أو المال حتى أن الغيب لا يزال موضوع آمائنا وعافنا جميعاً . فمن نظر إلى الأمام دون انقطاع أو نحاول بالصلوات والتعب والتضحية أن نسترض تلك القوى المجهولة التى نلجس بالتحيرة قدرتها على ابداننا والاستبداد بنا . يائنا من مخلوقات تفسد أى ملاذ لنا بين أرواء الحياة التى لا حصر لها ، ألم يبرح لنا الدين ببعض طرائق التكفير وتخفيف تلك الأحوال التى نزعجها وتذبذبنا على الدوام ؟

(فيلون) : لئن لاملل حقا إلى أن غير منهي بل والنتيج الوحيد لخداية كل امرئ إلى معنى لا تتق للدين هو بصوريات صحيحة لشقاء الناس وإثمتهم . ولذلك الفرض كانت موهبة بلاغة وخيال قوى الرم من موهبة استدلال وحجة .

إذ أمن الضرورى للتدليل على ما يشعر به كل فرد في نفسه ؟ من

الضرورى لحسب - أن نجعل كل أنفسنا نضع به شعورا أو تقي وأمل بالحساسة إن أمكن .

(ديمان) : إن الناس لمقتنون - والحق - اقتناعا واثبا بهذه الحقيقة الطيبة المحونة . إن بلایا الحياة وشقاء الإنسان والمعاسد العامة في طبيعنا والمناع غير المستوفى بالذائد من ثروة وجاه ، هذه العبارات قد هدت - على الأغلب - مضرب المثل في جميع اللغات . ومنذا الذى يستطيع أن يشك فيما يبلته الناس جميعا من شعورهم وتجربتهم المباشرة ؟

(فيلون) : في هذه التهمة يتفق المعلم اخفا ناما مع الشوق وفي جميع الآداب - من مقدمة ودنيوية - قد لج في موضوع الشقاء البشرى بالجمع بلافة يمكن لأكسى والحزن أن يوحيا بها . والعمراء - الذين يمدحون في حديثهم عن الاحساس لا عن مذهب والذين لصحاتهم من هم قرة أعظم - وأما سوا في صور من هذا التليل . فتد (هومبروس) إلى (دى يوج) (١) كان ذلك الرهط الملهم كله شديد الحساسية بأن ليس ثمة تصور آخر للأشياء يواهم شعور كل فرد وملاحظته

(ديمان) : أما عن الثناء فلتست في حاجة إلى البحث عنهم . قتلش

شأن في مكتبة (كلياشر) هذه . سأجرؤ فأؤكد أنه - باستثناء المؤلفين في العلوم الخاصة كالكيمياء وعلم النبات ، الذين لم تنح لهم فرصة لمعالجة الحياة البشرية - ينذر أن نجد بين أولئك الكتاب الذين لا حصر لهم واحدا لم يتزعج الاحساس بالشقاء الانساى شكوى منه واعترافا ، لقد كانت الظروف جميعا في هذا الجانب وفيما أذكر ليس ثمة مؤلف - في هذه الفقرة أو تلك من كتابه - كان من الحفاة بحيث ينكرها .

(فيلون) : أرجو أن تعذون لقد أنكرها ليتز . وربما كان أول (١) من خاطر يمثل هذا رأى البائع في الجراة والمعارقة ، لقد كان - على الأقل - أول من جملة جوهريا في مذهبه الفلسفي .

(ديمان) : وإذا كان إلا أول ألم يكن يستطيع أن يشعر بضلته ؟ إذ أمذا موضوع يستطيع الفلاسفة للشروع في القيام باكتشافات فيه وعلى الأخص في هذا العصر المتأخر ؟ وهل يستطيع إنسان ما أن بأمل بانكار بسيط - إذ أن الموضوع قلما يسمح باستدلال - في هدم شهادة الجنس البشرى الموحدة القائمة على الإحساس والوهي ؟

(ثم أورد ٥٥)

(١) هذا الانساى نحمد منه دكتور كنج وأليل آخرين بل ليتز يد أنه لم يأخذ به أحد بلخ من الشهرة مبلغ هذا العيوس الأناي (المؤلف)

(١) دى يوج (١٨١ - ١٦٥) . شاعر انجلى علم صالده عديده قسم بالكتابة والحزن [القريم] .

لم يدعى الإنسان السور من مجموعة الحيوانات الأخرى كذا ؟ إن الأرض برمتها - صدقني يا فيلون - مملوءة مدسة ، وثمة حرب دائمة مضطربة بين المخلوقات الحية جميعا ، بالضرورة واجوع والحاجة تثير القوى والشجاعة ، والخوف والتلق والحوار تزعج الضعيف الجبان وإن أول ولوح في الحياة يكسرك الطفل الموليد وأباء النفس ، وإن الضعف والعبور والضئيل لصاحب كل مرحلة من مراحل تلك الحياة ويكون ختامها الشرع والتفزع .

(فيلون) : لاحظنا أيضا مكائد الطبيعة القوية لتفويض حياة كل موجود حي . فالقوى يفتقر الضعيف ويقيه في فروع وقلق دائم . والضعيف بدوره يفتقر للقوى ولا يبق عن إغافته والتعثر به . تأمل ذلك الجنس الذي لاحصر له من الحشرات وهي اما تتوالد على جسم كل حيوان أو تقوم حوله وتشب به شأها هذه الحشرات حشرات أخرى أحال منها تصديها . وعلى ذلك ففي كل جانب - في الأمام الخلف من فوق ومن تحت - تكثف كل حيوان أعداء تتوخى دأبه شقاءه وإبادته .

(فيلون) : (سائما)

الأمر على عكس ذلك فهنا - على التخصيص - يتضح أعظم انضاح انشاق تعاليم الطبيعة وتعادها . من الحق أن في وسع الإنسان - بالاتلاف - أن يغلب على كل أعدائه الحقيقيين

ويغدو سيد الخليفة المروية كلها . ولكن أليس يمثل الإنسان لنفسه حيوانات متجيلة ، شياطين وهمية تخلق بالأموال الخرافية وتغوى كل متاع في الحياة ؟ فلذته كما يتحلبا تبدو في أعينهم جارية ، وغذاؤه وراحته تثير فيهم الرية والتفزع . ونومه وأحلامه تبني له مواد جديدة للخوف والتلق . وحتى الموت وهو مبره من كل رذء آخر يمثل وحسب الملح من الرزايا التي لا نهاية لها ولا حصر . إن الذئب ليس أكثر إثارة للتطلل والوسجيل من إثارة الخرافة لصدور الفانين التصاء التلق .

ثم تأمل يا (دميان) هذا المجتمع هينه الذي تغلب فيه على تلك الحيوانات المفترسة وهي عدونا الطبيعي . تأمل أي نوع جديد من الأعداء لا يثيره علينا ؟ أي رذء وشقاء لا يسببه لنا ؟ إن الإنسان هو أعظم عدو للإنسان . وبلاستيداد والظلم والارباية والمهوان والنف والضعف والحرب والطلب والحياة . والتندر ، هذه جميعا يهذب الناس بعضهم بعضا وسرعان ما يتفحشون هذا الذي كونه مالم يهلوا من رزايا أشد وطأة لا بد وأن تصحب انضاحهم .

(دميان) : ولكن وإن نكسر هذه المهانات الخارجية التي نصبتنا من الحيوانات والأناس من العناصر كلها التي تنقض علينا ، تكون نتائجا من الرزايا فهي ليست شيئا إذا قمست بذلك التي تنفأ في قفوسنا من احتلال مزاج ذهننا وبدنا . وكل منها ما ينفأ من تذهب الأمراض البلى ؟

استغفر إلى الاحصاء المفجع للشاعر العظيم :

حصوة الأمعاء والقرحة وآلام القولنج
المبرحة ، والمبطل المحتدم والكآبة المكشورة
والجنون المستعر والغزال السقيم والنحول
والعلاء عن المكشع . لقد كانت الرجة حيفة
والآفات حيفة : والياس يسي إلى المرضي
ويتنقل من فراش إلى فراش ، وعليهم تسلط
سهمه وهو يطمئن - لكن في تباطؤ -
وإن كانوا عاليا ما ضرعون إليه بالدور ،
وكانه خيرهم الأعظم وألمهم الآخر .

« وأردف (دميان) قائلا »

إن اضطرابات الذهن وإن نكس أكثر استغفاء إلا أنها ربما لم تكن أقل كآبة وإزعاجا . والدم والحبل والسكر والحلق وخيبة الأمل والتلق والخوف والكآبة والياس ، هذا الذي يرب بالحياة دون فروات قاسية من هذه المذبات ؟ وكل ندر شعورهم بأحاسيس أفضل ؟ إن الكدح والفتور - حل مقت الجميع لها - هذا الزاد الحقيقي لا كبر عدد ، وأولئك المحظوظون القلائل الذين ينمون باليسر واليسار لا يلبثون البتة الرضى أو التبع الصادق . إن غيرات الحياة جميعا بجمعة تجعله شقيا حقا . بل وأي رذء من هذه الأرزاء - ومن الذي يستطيع أن يفلت منها جميعا ؟ بل إن فيه خير واحد - ومن الذي يستطيع

أن يملك الخير كله ؟ - لنكتفي في الثالب لجمل الرغبة في الحياة مثيلة . إذا اندفع غريب مجأ إلى هذا العالم لأرضه - كنموذج لأرزاء الحياة - مستثنى منها بالأمراض وسحنا مكتظا بالهموم والمذنين ومبدان معركة انتشرت على ساحته الجنت ، وأسطرلا يتنطح في المحيط ، وأمة تضنى تحت وطأة الاستبداد والمجاعة والوباء . أين أخوده لأدبر له وجه الحياة البسج وأمدته بفكرة عن لئانها ؟ إلى مرضى أو إلى أوبرا أم إلى بلاط ملك ؟ سينظ - بحق - أنني كنت أظنه لحسب على ألوان من التوس والياس .

(فيلون) : لا مفر من هذه الآلة المؤثرة ولكننا - ولنا العذر في ذلك - لا تزال نريد في الانتهام . إني لاسال لم كان الناس في جميع العصور يشكون دون انقطاع من شقاء الحياة ؟ .. قد يقول امرؤ أن لاحق لم فقه الشكاوى إنما تنجم عن موقفهم المترحم الضجر التلق وإنني لأجيب أني أوسع أن تكون هنالك دطامة للشقاء أيقن من هذا المزاج التمس ؟ .

ويقول معارض : ولكن إذا كانوا أشقياء حقا على ما يزعمون فلم يبقون على قيد الحياة ؟ ...

غير قاطعين بالحياة وجلين من الموت
أقول : هذه هي الدلالة التي تثبتنا
الحياة لا ترضى والمرت محف

المسبية ؟ ليس ثمة أحد اللهم إلا نحن الصوفيين - كما يطيب لك أن تدعونا - نستطيع أن نفسر هذا المواجه العريب بين الطواهر ، وذلك بأن نستمدحها من كمال لامتناه ولكن لا إحاطة لنا بها .

(كلياتش) : [بما]

وأخيراً هل كمنعت من مقاسدك يا فيلون ؟ إن انفافك الطويل مع (ديان) لم يدهش - في الحق - الا قليلا ، ولكن وجدتك - كل الوقت - تجهز في الحفاء بطارية من المدافع ضدى . ويجب على أن اعترف بأنك قد وقمت الآن على موضوع يتأهل روحك البيلة في الممارسة والجدل ، وإذا انبسطت أن تحت النقطة الحالية وتدل على أن الجنس البشرى شقى فاسد لكان هنالك - في الحال - نهاية للدين . إذ لاى غرض قامت صفات الله الطبيعية ببناء صفاته الخلقية لا زالت منفعة بالذلك منفعة إلى اليقين ؟

(ديان) : أنت تهتاج بسهولة عظيمة في أبسط الآراء وأدناها إلى القول حتى عند المتدينين الورعين أنفسهم ، وليس هنالك أدعى إلى الدهشة من أن نجد موضوعاً كهذا يتصل بشقاء الإنسان وإنه يعالج بما ليس أقل من الكفر والفساد . ألم يعط رجال الدين والمبشرون - الذين أقاموا خطابهم في مثل هذا الموضوع الخصب ، أقول ألم يعملوا بسهولة حلاً للاشكالات التي قد تصبى ؟ هذا العالم ليس إلا نقطة إذا قورن بالكون ، وهذه الحياة إن هي

إلا لحظة لو قورنت بالخلود . ومن ثم فالطواهر الشريفة الراضة تقوّم في مجالات أخرى وفي حقبة مستقلة من الوجود . وعند ما تنفتح جيون الناس تمتد على نظرات أوسع للأشياء سيرون الارتباط بين القوانين العامة على تمامه وسيبتجون عاشقين جود الله واستقامته بين تيه عنايته وتيقيداتها .

(كلياتش) : لا لا لا هذه الافتراضات العسفية لا يمكن قط التسليم بها وهي متصارعة مع مادة الواقع الراضة التي لا زراع عليها . فنى يمكن معرفة علة من السل إن لم يكن ذلك من معلولات المعروفة ؟ ومتى يمكن التبدل على فرض ما ما لم يكن ذلك من الطواهر البادية ؟ إن إقامة فرض على آخر هو بناء بناءه في الهواء وأتمى ما يلبه بهذه التكهات والأوهام هو تأكيد إمكان رأينا لحجب ، ولكن لا يسعنا البتة أن نقيم حقيقته في كلف هذه الشروط .

إن المنهج الوحيد لدم الجود الالهي - وهذا ما أحذ به طائفاً - هو أن تنكر إنكاراً مطلقاً شقاء الإنسان وإنه . إن تصور أنك مهولة وإن نظر تلك الحرية لم على الأعلية والاهمية وإن استدلالاتك لتتناقض مع الواقع والتجربة . أن الصفحة لأهم من المقدم وإن اللذة لأهم من الألم ، وإن السعادة لأهم من الشقاء . وعند الاحضاء نجد أن كدراً واحداً تلقاه نذكرك منه مائة من المباحج .

(فيلون) : لو سلينا بوقتك - وإن يكن منها بالثك - ينبغي لك أن تسل في الوقت نفسه بأن الألم إذا كان أقل تنكراً

من اللذة غير أشد وأتمى بنا لا بعد . إن ساعة من الألم خلقة أن تعدل - في الغالب - يوماً أو اسبوعاً أو شهراً من مباحنا العامة الناعمة . وكمن الأيام والأسابيع والشهور العديدة قدمرت بالكثيرين وهم في أشد الآلام ؟ إن اللذة التي يندر حدوثها في حالة واحدة قدسية أن تبلغ الاقتان والولع ، يد أنها لا يسعنا أن تصل - في حالة واحدة ولو وقت ملة إلى أعلى درجة ومنزلة : تشاهد الأرواح وتراعى الأعصاب ويضطرب البناء وسرعان ما تستحيل البهجة إعياء وإرهاقاً . يد أن الألم ينشأ في كثير من الأحيان - نعم في كثير من الأحيان أنها الإله الجبراً - من الشذاب والكفاح . وكذا حال الألم غذا كفاحاً وعذاباً حقاً : يستنفذ الصبر وتفيض الشجاعة ويشتت الحزن بنا ، وليس ثمة ما يبعد من شقائنا اللهم إلا عى عنه أو حادثة أخرى هي الملاح الرحسند لكل شر ، ولكنا - عن حماة طبيعية فنيا - نطير إليها بفرع أعظم وذهول .

[وارد (فيلون) ١٢٠]

ولكن لكن لا نصح في هذه الموضوعات - وإن تنكر أوصح الموضوعات وأقمتها وأهمها جميعاً - ينبغي أن أنبئك يا (كلياتش) إلى أنك وضعت هذا الجدل على أخطر طريق ، وأنت تخرج - عن غير نقطة منك - بشلك مطبق في أم عقائد اللاهوت القلبي والموجى به . ماذا ! ليس ثمة منيع لتحديد دعامة الدين عالم تلم بمادة الحياة البشرية وتحفظ جميع الأمانات وتقاضها وأكداراً وحماياتنا بوجود متصل - حتى في هذا العالم - صالح مرغوب فيه ! ولكن هذا يتعارض مع محور كل فرد ونجربته . وهو يتعارض مع سلطة قائمة لا يستطيع شيء

أن يفوضها ، وليس ثمة أدلة قاطعة يمكن تقديمها ضد هذه السلطة كما ليس يمكن لك أن تحصى وتقدر وتوازن بين الآلام والشذائت جميعاً في حياة الناس والحيوانات أجمعين . وعلى ذلك فيأفكك مذهب الدين كله على نقطة يلزم من طبيعتها أن تنظر إلى اليقين تتعرف شيئاً بأن ذلك المذهب منفقر إلى اليقين كذلك

ولكن إذا سلنا لك بما لن يمكن قط الاعتقاد به - أو على الأقل - ما ليس في وسعك قط الدليل عليه ، وهو أن سعادة الحيوان أو - على الأقل - سعادة البشر في هذه الحياة تفوق شقاءهم ، فأنت مع ذلك لم تفعل شيئاً بعد . إذ أن هذا ليس - بأية حال - ما شوقه من قوة لا متناهية وسكة لا متناهية وخير لا متناه . لم كان في العالم شقاء ؟ لم يكن ذلك صدقة على التأكيد ، فز علة معينة إذن . أدلك عن قصد من الله ؟ ولكن الله جواد جوداً كاملاً . أدلك عن تعارض لقصد ؟ ولكن الله قاطق القوة . فليس ثمة شيء يستطيع أن يعرض صلابة هذا الاستدلال الموجز الواضح القاطع اللهم إلا إذا زعمنا أن هذه الموضوعات تتخطى كل قوة بشرية وأن مقاييسنا العامة للحق والباطل ليست تنطبق عليها . وهذا موضوع قد ألهمت دواما عليه ولكنك قد غشيت من البداية في ازدياء وسخط .

ولكنني سأقدم بالانساب من هذا المقل إذ أتى أنكر استطاعتك إلهامى فيه ، وسأسل بأن الألم أو الشقاء في الإنسان يومئ القوة والخير في الله - حتى في المعنى الذي تجعله هذه الصفات - فإلام تقدمت

بهذه الترحيبات ؟ إن مروءة ممكنة ليست وحدها كافية . يجب عليك أن تدلل على هذه الصفات البحتة التي لا اختلاط فيها من هذه الطواهر المشوشة المخلطة ومنها وحدها . صفة مفعمة بالأمل ! إذا كانت الطواهر بحتة لا اختلاط فيها يجمع ذلك متناهية لكلمات غير كافية لهذا الغرض . ثم ماذا إذا كانت متصادمة متنافرة أيضا !

ههنا يا (كياش) أنم في جيتي ! ههنا أظفر . من قبل عندما كنا نقاوش بسدد الصفات الطبيعية للعقل والتدبير احتجبت إلى تدقيق الشكي الميتافيزيقي لأطقت من قبضتك . في نظرات عديدة إلى العالم وأجزائه ، لاسبيا الجزء الأخير ، كان جمال اللعل العائية وصلاسها يؤثران فينا بقوة لا تدافع حتى أن الاختراصات كلها تبدو . وهذا ما اعتقدنا عليه في الواقع . مجرد مكابرات ومفصلات ، ومن ثم لا نستطيع أن نتخيل كيف أمكننا أن نقيم وزنا ما لها . ولكن ليس ثمة نظرة للحياة البشرية أو لحالة الجنس البشري نستطيع أن نستدل منها بمثل هذه القوة التي لا تنهر على الصفات الأخلاقية أو تسلط أن الجرد الإلهي مقرون بالقوة اللامتناهية والحكمة اللامتناهية الذين يجب أن تكشف عنهما يعيون الإيمان لحجب . ودورك الآن أن تسحب المجداف المجهد وتدعم تدقيقناك الفلسفي ضد ما عليه العقل الصريح والشجيرة .

الخصيل الكاوي شمر

(كياش) : لست أزدد في التسليم بأني كنت غليظاً أن أشك في أن التكرار الكثير لكلمة لامتناهية - تلك التي تصادفها عند جميع كتاب اللاهوت - أدعى إلى المدح منه إلى الفلسفة وأنها لتخدم مقاصد الاستدلال بل ومقاصد الدين نفسها إذا اكتفينا ببعض تعبيرات أكثر دقة وتواصلاً . فالكلمات ، مدهش ، رائع ، عظيم للغاية ، حكيم ، مقدس ، هذه تملأ الخيال امتلاء وافياً . وإن أي شيء ، بعدها - فضلاً عن كونه يفرض إلى أباطيل - ليس له تأثير على عواطفك أو مشاعرك . وعلى ذلك فإذا تخيلنا في موضوعنا الراهن عن كل مسألة بشرية ، كما يبدو أن هذا قصديك يا (ديان) ، يأتي لأخشي أن تتحلل عن كل دين والآن يبقى على تصور ما للوضوح العظيم للبيادتا . وإذا احتفظنا بالمثقة البشرية يلزم لنا أن نجد من المستحيل على الدوام التوفيق بين خليط من الشر في العالم وبين الصفات اللامتناهية . وأقل من ذلك أن يكون في وسعنا التدليل على الأخيرة من الأول . ولكن هب أن صانع الطبيعة عدود الكمال ، فهو وإن يكن قصي اليد عن الجنس البشري ، إلا أن من الممكن تمثيل الشر الطبيعي والخلق قصيراً مقنناً وشرح كل ظاهرة صعبة المراس والإحاطة بها . وحينئذ يمكن اختيار شر أقل لتجنب شر أعظم

والوضوح للشاقي لإدراك النهاية المروءة . وفي كلمة إن الجرد وقد نظمت الحكمة وحدته الضرورية يمكنه أن يوله مثل هذا العالم الراهن . وأنت يا (فيلورب) أنت الذي تتجمل في المبادرة بالنظرات والتأملات والمناقشات يسرى أن أسمع بالتفصيل ودون مقاطعة رأيك عن هذه النظرية الجديدة ، فإذا أسألت انتباهنا كان لنا من بعد أن نعرفه في فلسة أطول من الوقت .

(فيلون) : إن مشاعري لا تستحق أن تكلم كائناتنا سر ، وعلى ذلك فأسوق - دون احتفاء - ما يمشي لي بسدد الموضوع الراهن . أحسب أننا يجب أن نسلط به إذا استوتق عقل محدود - تفرسه على غير معرفة إطلاقاً بالعالم - بأن العالم نتج موجود غاية في الخير والحكمة والقوة ، لا استطاع من تكلمها الخاصة - وإن يكن محدوداً - أن يكون سلفاً فكرة عنه مختلفة عما نتجده بالتحيرة ولن يستطيع البتة أن يخال من هذه الصفات التي أحاط بها وحدها أن الملول يمكن أن يكون مفعماً بالذلة والشقاء والاضطراب كما يبدو في الحياة . ولنعرض الآن أن هذا الشخص قد سبق إلى العالم وهو لا يزال مستوقفاً من أنه صناعة بشرية لموجود سام جراد ، فربما أدفعت خيبة الأول ، ولكنه لم يسل ألبتة اعتقاده الأول إذا كان منبهاً على حجة راسعة ما دام مثل هذا العقل المحدود يلزم أن يشعر بهاء وجهه ويلزم أن يعلم أنه قد يكون هناك حلول كثيرة لهذه الطواهر التي تفلت أبداً من إحاطته . ولكن لنفرض - وهذه هي حالة الإنسان على الحقيقة - أن هذا الخلق لم

يكن مقتنماً من قبل بمثل سام جواد أقوى بل ترك ليستق هذا الاعتقاد من طواهر الأشياء . فهذا يقرب الأمر تماماً ولن يجد قط أي سبب لثل النتيجة . وقد يكون مقتنماً اقتناعاً وأيقياً بمدود عقله نصيفة ولكن هذا لن يساعده على تكوين استدلال من جود قوى عليها ، مادام يتعم عليه أن يكون ذلك الاستدلال مما يعرفه لا عما هو على جبل به . وكذا بالفت في ضعفه وجهه انتزعت الثقة من نفسه ورده ارتباباً بأن مثل هذه الموضوعات وراء تناول ملكاته . ومن ثم يكون عليك أن تستدل منه من الطواهر المروءة لحسب وتنفيذ جانباً كل اعتراض أو تكبير نصفي .

إذا أدركت منزلاً أو قصراً ليس به شقة واحدة مريحة أو ملائمة ، ونوافذه وأبوابه ومداعضه وعمرائه وسلاله وتدبير البناء كله مبعث للضجعة والاختلاط والنصب والظلام وأقصى حرارة وأقصى برودة ، لا تنقص - يقيتنا - صناعته دون حاجة بك إلى لحسه مرة أخرى . وعيناً بسيط لك المهندس دقته ويدل لك على أنه إذا تبدل ذلك الباب أو تلك النافذة لتزب على ذلك أرداء أعظم . وإن ما يقوله قد يكون صدقاً على الدقة : فتبدل جود بيتنا تبقى سائر أجزاء البناء كما هي قد يزيد لحسب في القناص ، ولكنك لا تقفاً ترجم بوجه عام أنه إذا كان للمهندس الخندق والمواهب الحيرة لكان قد رسم خطة للكل ولكن قد عسدل بين الأجزاء بحيث يصلح هذه القناص أو أغلبها . وإن جهله بهذه النقطة أو جهلك أيضاً مما لن يفتك قط باستحسانها .

وإذا وجدت تقصراً أو عيوباً عديدة في البناء لبست المهندس دائماً دون أن تدخل في تفصيل ما . وأوجز فأعيد السؤال : هل يعتبر العالم - بوجه عام وعلى نحو ما يبدو لنا في هذه الحياة - مختلفاً عما قد يتوقعه سلفاً إنسان أو موجود محدود من إله قوى حكيم مجواه؟ إنه لمن الغرض العريب أن تقرر العكس . ومن هنا استنتج أنه أياً كان تناقض العالم وإناحيه بعض الافتراضات والتكهنات فيما يتصل بفكرة إله كذا فانه لن يستطيع إثبات أن عدداً يستدل بيقين بوجوده . إن التناقض ليس منكوراً إطلائاً ولكن الاستدلال وحسب هو المنكور . والتكهنات - وخاصة حين يتبنى اللاعناني جانباً من الصفات الإلهية - قد تكفى للتدليل على تناقض ما ، ولكنها لا يكفى قط أن تكون دعامات لأي استدلال .

يبدو أن ثمة ملائمة أرسا تعتمد عليها أجزاء الأجزاء جميعاً أو معظمها . تلك الأجزاء التي تعذب المخلوقات الحاسة وليس من المستحيل أن تكون هذه الملائمة جميعاً ضرورية لا ممدى عنها نص تعرف شيئاً مثيلاً جداً عما وراء الحياة الملمة بل وعن الحياة العامة أيضاً ، حتى أنه ليس هناك تكهن - مهما يكن وحشياً - صدد تدمير العالم إلا احتمال الصواب ، وليس هناك تكهن - مهما يكن مستحيلاً - إلا احتمال الخطأ . وكل ما يورد إلى القهقري في هذا الجدل المبني وهذا الغموض ينبغي أن يكون شكياً أو على الأقل يؤخذ على حذر ولا يبيح فرضاً ما أياً كان ، وأقل من ذلك أن يبيح فرضاً لا يدعمه مظهر ما

من مظاهر الزجمان . والآن ، هذا ما أراه صدد حل الشر جميعاً والملائمة التي يعتمد عليها . فليس ثمة واحد منها يبدو العقل البشري في أقل درجته ضرورياً أو لا ممدى عنه ، كما أننا لا نستطيع أن نفرضها كذلك دون أن يكون هذا إغراقاً في الخيال .

إن الملائمة الأولى التي تدخل الشر هي ذلك الابتداء الخلق الحيواني أو تدميره الذي تستخدم فيه الآلام كاستخدام الفناذ أجا في إثارة المخلوقات جميعاً للقتل وفي جعلها تسير على سبيل بقائها وهو عملها العظيم . والآن ، إن الفكرة وحدها في درجاتها المتنوعة تبدو للقيم البشرية كآلة لهذا الغرض . ينبغي أن تكون الحيوانات جميعاً في سالة مطردة من المتع ، ولكن عندما تلج عليها إحدى ضرورات الطبيعة كالطش والجوع والتعب تجدها تدمر تقص في اللذة بدلا من شعورها بالآلم ، تدفع به إلى البحث عن ذلك الموصوع الضروري لبقائها . إن الناس ليتبنون الفكرة بنفس الحساس الذي يجتنبون به الآلم ، هم - على الأقل - قد فطروا على ذلك . ومن ثم يبدو ممكناً إمكاناً واضحاً أن تنهض بسبب الحياة دون آلم ما . فلم إذن نجد حيواناً ما قابلاً للتأثر بمثل هذا الإحساس؟ إذا كان في وسع الحيوانات أن تتحرر منه ساعة في مقصودها أن تتم بطوس دائم منه ، وهو يفتر إلى ابتداء خاص في أعضائها لتوليد كذلك الابتداء الذي يدها بالإحساس والسمع أو أية حاسة من الحواس هل لنا أن نتكهن أن مثل هذا الابتداء كان ضرورياً دون ما سبب ظاهر؟ وهل لنا أن نسند إلى مثل هذا الحدس كما نسند إلى أيقن حقيقة؟

ولكن قدرة على الآلم لا يسعها وحدها أن تولد الآلم عالم تكن هنالك الملائمة الثانية أعي قيادة العالم بقوانين عامة وهذا لا يبدو ضرورياً بالمرّة لوجود بالغ في كاله . من الحق أنه إذا كان كل شيء مقوده إرادات خاصة لا تقطع مجرى الطبيعة على الدوام ولما كان في وسع إنسان أن يستخدم عقبه في سلوكه في الحياة . ولكن أليس ينبغي أن تكون هنالك إرادات خاصة أخرى تدير من هذا القصد؟ أليس ينبغي أن يحدد كل رزء حيثما كان له وجود وأن يولد كل شيء دون تمهيد أو سياق طوي لعل وسلالات؟ فضلاً عن هذا يلزم لنا أن تدخل في حسابنا بمقتضى التدبير الزمان العالم أن مجرى الطبيعة وإن افترض متظلاً دقيقاً لا يبدو لنا كذلك ، وأن أحداثنا ليست حقيقتاً وأن كثيراً منها يخبئ توقعاتنا . فالصحة والسقم والمدهو والمهاج وعدد لا حصر له من الأحداث الأخرى عليها مجهولة ومتوقعة لها قوة عظم على حظوظ الأفراد وعلى رفاهية المجتمعات ، بل والحياة البشرية جميعاً تعتمد - على نحو ما - على مثل هذه الأحداث . ومن ثم فالوجود الذي يبرف المتابع الحقة للعالم يستطيع في دسر وإيرادات خاصة أن يحيل هذه الأحداث جميعها شيراً على البشرية ، ويجعل العالم برمه سعيداً دون أن يكشف عن نفسه في أي حمل من هذه الأعمال . إن الأسطول بما له من أغراض فاضة للجنس قد يصادف دواماً وبمأهولة ، والأمراء الأخيار يصنعون صحة جيدة وحر طويلاً ، والأشخاص الذين ولدوا للقوة والسلطان لهم أوجهة جيدة واستعدادات فاضلة . إن قلة من مثل هذه الحوادث إذا قادتها

قيادة منتظمة حكيمة خلقة أن تغلب وجه العالم ولا تبدو معطلة مجرى الطبيعة أو مشوشة للسلوك البشري أكثر من التدبير الزمان للأشياء حيث لعل خفية متنوعة مركبة ، فثمة ملائمة بسيطة لمخ (كاليجول)^(١) في طفولته خلقة أن تحيله (تراجان)^(٢) . وإن موجة أعلى من سائر الأمواج لو ابتلعت (قيصر) وحطت في قاع المحيط كانت خلقة أن تبقى الحرية لجوء كبير من البشرية . يمكن أن تكون هنالك - وهذا ما ينبغي لنا معرفته - أسباب خفية لعدم تدخل العناية الإلهية على هذا النحو ولكنها مجهولة لنا ، يد أن افترضنا واحداً بأن مثل هذه الأسباب موجودة قد يكون كادراً لا نقاد الاستدلال الخاص بالصفات الإلهية ، ولكنه ليس يكفي البتة على التأكيد لإقامة ذلك الاستنتاج . إذا كان كل شيء في العالم تسيره قوانين عامة وإذا جعلت الحيوانات قايمة للآلم ليعد من الاحتمال ألا يحدث بعض الشر في الاستحالات المتنوعة لمادة ، ومن الشكاف والتعارض المتوهم بين القوانين العامة . ولكن يصدر أن يحدث هذا إن لم تكن هنالك الملائمة الثالثة التي اقترحت ذكرها ، أعي الاقتصاد العظيم الذي توزع به القوى والمخالفات في كل موجود . إن أعضاء الحيوانات جميعاً وقدراتها لتوافقة فيما بينها وصالحه لحفظ

(١) أحد أباطرة الرومان . اشتهر باستفوزة اعلى . اشتهر به (٢٧٧ - ٢٨١ م)
(٢) أحد أباطرة الرومان . اشتهر به (٩٨ - ١١٧ م) .
استطاع المسيحيين - (لنقترن)

بقائها حتى أنه بقدر ما يصل إليه التاريخ والرواية لم يظهر نوع واحد انقرض في العالم . فلكل حيوان مواهبه اللازمة ولكن هذه المواهب متنوعة بتدبير دقيق حتى أن تفضلاً ملحوظاً فيها يقص على المخلوق قضاء مبرماً . فحياتها تزيد قوة ما كان هناك خفض متناسب مما في القوى الأخرى . فالحيوانات التي تتفوق في السرعة يوزنها - بوجه عام - القوة . والحيوانات التي تتمتع السرعة والقوة إما أن يكون في بعض حواسها نقص أو تضعف لطالب لا تقوى . إن الجنس البشري - وبميزته الرئيسية العقل والخصاصة - هو من بين جميع الأجناس أوجها وأقصاها في المزايا البدنية . فليس للناس ملابس وسلاح وطعام ومسكن وأية نعمة من نعم الحياة إلا ما يدينون به إلى حذقهم وبراعتهم . وبالاختصار تبدو الطبيعة وقد حسب حساباً مضبوطاً لضرورات عطاياها وتبدو أشبه سيد صارم . قد رددت بقوى ومواهب تزيد قبلاً عما هو كاف على الدقة لشد هذه الضرورات . إن أياً كريماً يلوذ الخسوف بمجموعة عظيمة كي يصونه من الأحداث ويضمن له السعادة والرفاهية في أسوأ الملاحظات . أنه لا ينبغي أن يتكون كل مجرى من مجرى الحياة عموماً بالهاوى بحيث أن أقل انصراف عن الطريق السوي - من خطأ أو ضرورة - يتم وقوفنا في الشقاء والخراب . كان ينبغي أن يكون هناك احتياطي أو فائز في السعادة . والآن تكون القوى والضرورات قد مضت بتدبير بالغ الصرامة . إن صانع الطبيعة قوى بما يبدو التصور وإن قوته لشئال عظيمة لا تنفذ على الإطلاق . وقدرة ما تستطيع الحكم ليس هناك من سبب لجملة يلحق هذا التصديق

في معاملاته مع مخلوقه . وكان الأول - إذا كانت قوته مجردة تماماً - أن يخلق عدداً أقل من المخلوقات ويعددها بمواهب أكثر . لسعادتها وقايتها . إننا لا نعتبر البتة الذي يقوم ببناء يتحدو ما لديه من مواد تمكنه من إنجائه ، أقول إننا لا نعتبر هذا البتة متحسراً .

ولعلاج أغلب أراء الحياة البشرية لسد أطلال بأن يكون للإنسان أجنحة النسر وسرعة الإبل وقوة الثور وأذرع الأسد وزعانف السمك وأقل من ذلك أن أطلال له بصافة ملك . أرى لأفصح على زيادة في قوة واحدة أو ملكة واحدة من قوى نفسه أو ملكاتها . لكن الجنس كله نعمة أعظم للصناعة والعمل وتبشع ونشاط ذهني أقوى واتصال بالعمل ومواظبة أكثر أطراً . ليسكن لنوع كله اجتهاد طبيعي يتعدّل ما يستطيعه أفراد عديدين بالعادة والتأمل . وأضع النتائج - خاصة من الشر - هي النتيجة المباشرة الضرورية لهذه الموهبة . إن أغلب شروط الحياة البشرية الخلقية شأن الطبيعة تفضلاً من الكسل . ولو برى جنتنا البشرية - في التكوين الأمل لنظام - من هذه الرذيلة أو هذا النقص لتبع ذلك على الفور استئثار كامل للأرض وارتفاع للفنون والصناعات وتحقيق منضبط لكل عمل وواجب . وليلع الناس في الحال - بلوغاً تاماً - تلك الحالة الاجتماعية التي تصل إليها - وصولاً تاماً - غير الحكومات انتظاماً .

ولكن لما كان الجيد قوة وأقبح القوى جميعاً فإن الطبيعة تبدو

مبدأ - بما يتفق مع مبادئها المألوفة - لأن تنمى الإنسان بيد غاية في الشئ . وهي أقرب أن تعاقبه في شدة على نفسه فيه من أن تمكنه على ما يليه منه . لقد أبدعت نظامه بحيث أن الضرورة بالغة العنف وحدها هي التي تصطره إلى العمل . وهي تستخدم كل حاجاته الأخرى لتفهر حاجة الاجتهاد . فمرا حزيناً على الأقل - وأمدته بقسط من ملكة استصوبت أن تحرمه منها حرماناً طبعياً . مهنا قد نعلم بأن مطالبنا بالغة التواضع ، ومن ثم فهي أقرب إلى المعقول . فإذا طلبنا مواهباً لحكم أهل وقاد أسمي ، لحاسة للجل أدق ولحساسية للحدود والصدقة أدق ، قدية لنا إننا ندهي إدهاء فيه خروج على التقوى ونحرق نظام الطبيعة إذ نريد أن نرق بأنفسنا إلى مرتبة أعلى للوجود ، حتى أن الهبات التي نحتاجها - إذ تكون غير موافقة لحالتنا - لن تكون إلا وبالاً علينا . ولكن من العسير - ولدى الجرأة على تكرار ذلك - أن نأخذ نقيم في عالم مغم بالحاجات والضرورات . وحيث كل موجود وكل عنصر - على الأغلب - هو إما عدو لنا أو يأبى علينا اللون من العسير - الأمر كذلك أن يكون لنا ايضاً خراجا الخالص الذي نضارب به وأن نخرج من تلك الملكة التي يسعها وحدها أن تنفذ هذه الشرور العديدة .

واللأسف الرابطة التي ينشأ منها شقاء العالم وشره هي عمل مناع آلة الطبيعة غير المنصبة ومبادئها . ويلزم أن نقر بأن نعمة أجزاء قليلة من العالم يبدو أنها لا تنجم فرصاً ومحرماً لن يؤدي إلى نقص يتبين

واضطراب في الكل . إن الأجزاء لتقوم جميعاً بها وليس يمكن أن يفسر أحدها دون تأثير في سائرهما بدرجة أعظم أو أقل . ولكن يجب أن يلاحظ في الوقت عينه - إن لا أحد من هذه الأجزاء أو المبدى - مهما يكن من فائدة - متوافق توافقاً دقيقاً بحيث يحافظ بدقة على هذه الحدود التي تلخص فيها منفعتها . ولكنها جميعاً خبيثة في كل مناسبة أن تدفع إلى أحد الطرفين أو إلى الطرف الآخر . ولا مريم أن يقال هذا النتائج العظيم لم ينل حقل أخير من الصابغ ، فكل جزء قد أجزأ إنجازاً صليلاً والنسب التي يتحقق بها بالغة في فجائتها . وعلى ذلك فالرياح لارمة لحل الأبنفة على طول سطح الكرة وللمساعدة الناس في الملاحة ، ولكن كم تصير روية إذ ترتفع إلى عواصف وأعاصير ؟ والأمطار ضرورية لتطرية نباتات الأرض وحيواناتها ولكن كم تشفع ؟ وكم تتجاوز الحد ؟ والحرارة لازمة للحياة والإنبات جميعاً ولكنها لا توجد دائماً بالنسبة الواجبة . وصحة الحيوان ورفاهيته تتوقفان على مزج أمزجة الجسم وعصارته وإفرازها . ولكن الأجزاء لا تتنحى بانتظام وظيقتها الخاصة . وأي شيء أريد من عواطف النفس جميعاً من طموح أو غرورة ونحسب ؟ ولكن كم تفرق حدودها وتسبب أعظم رجفات في المجتمع ؟ ليس نعمة شيء مفيد في العالم الا واستحال ويلا في أحيان كثيرة بافراطه أو قسوته ، وليست الطبيعة مصونة - بالذمة اللازمة - من كل اضطراب وخطأ . وقد لا يكون عدم الانتظام قطاً من الضعامة بحيث يدمجها ما . ولكنه يكفي غالباً لطف الأفراد في الخراب والشقاء

وعلى ذلك فعل اجتراح هذه الملازمات يعتمد الشرع الطبيعي كله أو أعظم قسم منه. وإذا كانت المخوقات الحية جميعا غير قادرة على الآلم أو إذا كان العالم تديره إرادات جرئية لما حكان في وسع الشرع أن يمد دخلا إلى العالم وإذا كان للجيرانات وقرة عظيمة من القوى والملكات تعدو ما تستلزمه الضرورة المناسبة، أو إذا كانت حايح العالم ومبادئه المتعددة قد ميضت على نحو من الدقة بحيث تحفظ دواماً بالاعتدال والوسط الصحيحين لقل الشرع بالنسبة إلى ما نضمر به الآن. فما الذي نقوله إذن هذه المناسبة؟ هل نقول أن هذه الملازمات ليست ضرورية وأنه كان يمكن تبديلها عند ابتداع العالم؟ هذا القرار يبدو بالغا في غروره بالنسبة للمخوقات المصنعة الجامعة.

لكن أكثر تواضعا في نتائجنا ونسلم بأنه إذا كان يمكن أن يوضع جوداته - أي جودا مشابهة للحد البشري - وضعا قليلا بأسباب مختلفة لما كانت هذه الظواهر - مهما تكن شائعة - بكافية لقلب ذلك المبدأ بل يمكن في سر - على نحو مجهول - أن تكون مواضعة له. ولكن لتقرر أن هذا الجود لا يمكن موضوعا وضعا قليلا بل يجب أن يستدل عليه من الظواهر ليس يمكن أن تكون هناك أسس لهذا الاستدلال بينا هناك عدد عديد من الأجزاء في العالم، وبينما هذه الأجزاء كان يمكن أن تعالج بقدر ما يسع القهر البشري الحكم على هذا الموضوع. وأنا شاك بالحد الذي يعلني أسلم بأن الظواهر السبية - بصرف النظر من استدلالنا جميعا - قد تكون موائمة لمثل هذه التي افترضنا

ولكنها لا تستطيع فعل على التأكيد أن تدل على هذه الصفات. مثل هذه النتيجة لا يمكن أن تنتج من الفكر، ولكن يلزم أن تنشأ من الظواهر ومن تقننا في الاستدلالات التي نستخلصها من هذه الظواهر.

أنظر إلى العالم حولك، أي فرض عظيم من الموجودات الحية المنتظمة الحاسة الشفطة! إنك لتعجب من هذا التنوع الخائل وهذا الحسب. ولكن تأمل بعض الشيء تأملا أدق في هذه الموجودات الحية وهي الموجودات الوحيدة الجديرة بالاعتبار، كم هي مختصة بدمر بعضها بعضا! كم تمنح حبيها من إسماع قسبا! كم يحتقرها ويمقتها من يشدها! إن الجميع لا يمثلون شيئا اللهم إلا طبيعة عمياء أثبت فيها مبدأ جوي عظيم ونفطت من حبرها أطفالها المبتورين الماجرين دون فطنة أو رعاية أبوية

هنا بيننا لنا مذهب (المانوية) (١) كفرض ملائم لحل الإشكال ولا ريب أنه أصح - على ما يظهر - في بعض المواطن وأقرب إلى الرصان من الفرض السابق، إذ يفسر تفسيراً ميسورا الامتراج الغريب الذي يظهر في الحياة بين الخير والشر. ولكننا إذا اعتبرنا من جهة أخرى الاتساق الكامل والاتفاق بين أجزاء العالم لما انكشف

(١) مؤسس هذا المذهب (مانيه) وهو يفسر امتراج الخير بالعرفق العالم بأن يفسر خلق العالم إلى مبادئ - شاء في ذلك شأن زرادشت - اجتماعا غير في جوهره وموافقة أو الروح أو الخير والآخر شر هو الشيطان أو المائدة أو قطة. (الترجم)

لنا بينها علامات على الصراع بين موجود حقود وموجود جواد. بل أن هناك لتمازجا بين الآلام والذائد في مشاعر المخوقات الحاسة، ولكن ليست عمليات الطبيعة جميعا تنحصر في تناقض بين المبادئ، بين الحار والبارد والرطب واليابس والخفيف والثقيل؟ إن النتيجة الصحيحة هي أن المصدر الأصل للأشياء جميعا يقف موقف سوية من جميع هذه المبادئ. وليس يفضل غيرا على شر ولا حارا على بارد أو اليابس على الرطبة أو الخفة على الثقل.

يمكن أن نضع فروضا أربع تختص بطل العالم الأول:

أن لما غيرية كاملة، أو أنها مشتملة على شر كامل، أو أنها متعارضة قويا غير شر، أو أنها سالية من الخير والشر معا. والظواهر المتزجة لا يمكن أبنة أن تدل على المبدأين الأولين غير المتزجين. والاتساق القوانين العامة وثباتها يبدو متعارضا مع الثالث. ومن ثم فالفرض الرابع يبدو أرجحها إلى حد بعيد.

وما قلته بحدود الشر الطبيعي يطبق على الشر الأخلاقي مع تعديل يسير أو من غير تعديل. وليس لدينا سبب للاستدلال على أن استقامة موجود أسمي تقببه الاستقامة البشرية اللهم إلا أن جوده يشبه جود البشر. نعم قد يظن أنه ما قىء لدينا علة أعظم لتنتهي عنه المشاعر الأخلاقية على نحو ما نفهمه - ما دام الشر الأخلاقي في رأي

الكثيرين أبعد في تفوقه على الخير الأخلاق من الشر الطبيعي الخير الطبيعي.

ولكن حتى إذا لم يعلم هذا وحتى إذا اعتبرت القضية في الجنس البشري أرفع من الرذيلة فإنه ما دامت الرذيلة قائمة في العالم فسيتمكم كثيرا أيا المشية أن تلتبسوا تفسيرها لما. يتهم عليكم أن تنسوا إليها علة دون أن تولدوا بالعلة الأولى. ولكن لما كان يلزم لكل معاول علة ولهذا العلة علة أخرى تختم عليكم إما أن تسروا في الطريق إلى ما لا نهاية أو توقفوا عند المبدأ الأصلي وهو العلة الأخيرة للأشياء جميعا.

(ديمان): (مناخا)

وذلك أرويدك إلى أين يجمع بك خياطة؟ لقد اتفقا معا على التذليل على عدم الاحاطة بطبيعة الموجود الإلهي وعلى دحض مبادئ (كلياتس) الذي يقبس كل شيء على قاعدة الإنسان ومياده. ولكنني أجذك الآن تدفع إلى موضوعات كلها فسق وإلحاد وتغنون تلك العلة المقدسة التي لاح أنك وصيت بها. هل أنت إذن هادئ في السر، أعظم من (كلياتس) نفسه؟

(كلياتس): وهل فائق إدراك هذا؟ صدقتي يا (ديمان) إن صدقتك (فلون) كان يتسلل منذ البداية على حسابنا وطرم أن أن نتعرف بأن استدلال لا هوتا السوقي الطائش قد أمدته بدرجة

حقه للبخرية منا . فالنقص الشامل في العقل البشري ، وعدم الإحاطة إطلافاً بالطبيعة الإلهية ، والشقاء العظيم البام والالام الأعظم في الناس ، هذه موضوعات غريبة يترسها في وله أئمة اللاهوت المتعصبون وآسادته . ففي هصور الغفلة والجهالة كان من المأمون الرضى عن هذه المبادئ . وربما لم يكن هنالك آراء في الأشياء أنسب للبروض بالخرافة من إثارة دهشة البشر العمياء وتزعزعهم وتسميم .

(فيلون) : [خطأ]

لاشكاًل هكذا في لوم جهالة هؤلاء السادة الموقرين . أهم ليعرفون كيف يدلون أسلوهم مع الزمن . فقد كان أشيع موضوع لاهوتي في الأرمئة العارة هو التسليم بأن الطبيعة البشرية غرور وشقاء ، والتهويل في جميع العرور والآلام التي تلحق بالناس . ولكن في السنين الأخيرة بدأ أئمة اللاهوت يدلون من هذا الموقف وبأخذون — وأن يكن في شيء من التردد — بأن هنالك خيرات أكثر من الشرور ولذا نذا أكثر من الآلام حتى في هذه الحياة . وعند ما اعتند الدين اعتياداً تاماً على المزاج والثرية ظن أن من المناسب تشجيع الحزن إذ لا يقل الجس البشري على البجوه إلى القوى العليا إلا في ذلك الموقف . ولكن بعد أن تعلم الناس الآن كيف يكونون المبادئ ويسوقون النتائج كان حتماً تغيير هذه المعامل والانتفاع بمثل هذه الحجج التي قد تحتل شيئاً من التسقي والتقص على الأقل . هذا التنوع مماثل — ومن نفس المبادئ — لذلك الذي لاحظته من قبل هذه الشبكة .

« وعمل الله تحت [قانون] في النهاية على روحه المارعة وعن انتقاده الآراء الموسوعة ، ونكسش كنت أسطع أن لاحظ أن [دميان] لم يمنح بالرة المرح الاجر من الحدث وقد انتهر الفرصة عند فترة لصيرة جداً فترك لمحة مدبراً عضة ما »

الطبيعة وصانعها اللذين يستصيان على التفرير . ثمه غرض ثمه قصد ثمه تدبير يؤثر في كل مكان في أكثر المفكرين إعمالاً وأشد هم غفلة ، وليس ثمه إنسان يستطيع أن يتحصن بمذاهب باعلة لينجيه . ثمه مبدأ عام رأسخ في المدارس جميعاً — من بعض تأمل أعمال الطبيعة دون أي غرض ديني — هو أن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً . وبالانتفاع التابث بهذه الحقيقة لا يمكن أن يفتح مشرح لاحظ صمواً جديداً أو قتاة جديدة إلا إذا اكتشف كذلك منفة هذا العض وقصده . ومن دعامات المذهب الكورينكي الطبيعة هذه القاعدة : إن الطبيعة تعمل بأبسط المتاح وتنتق أنسب الوسائل لأية غاية . ويجمع الفلكيون في الغالب دون أن يفسكروا في هذه القاعدة ، هذه الدعامة القوية للقوى والدين . ويلاحظ مثل هذا في أجواء أخرى من الفلسفة . وعلى ذلك فكل العلوم تكاد تقودنا — عن وعى منا — إلى التسليم صامع أول عاقل ، وكثيراً ما يعظم سلطانتها إذ كادت لا تبين إبانة مباشرة عن ذلك القصد .

ولأنه ليلدلي أن أسمع (جالينوس)^(١) يستدل بصدد بنية الجسم البشري فهو يقول^(٢) إن تشريح إنسان ليكشف ما يربو عن ٦٠٠

(١) (جالينوس) : « تأمل ليعرج يوناني (١٢١ — ٢١٠ م) قام باكتشافات هامة في مجال التشريح »
(٢) De formatione fœtus.

(٣) De Foetum Libellus. cap. vi. Galeni Opera
أعطى في تلك المأثورات طبعة كيبسيت ص ٢١٥ - ٦٩٩ - ٦٩٠ (١٨٢٢)
(الترجمة)

الفصل الثاني عشر

* وجد دجيل (دميان) واسل (كليايش) و (فيلون) حديثها على النحو التالي :

(كليايش) : إني لأخشى يا صديقنا أن نيل ميلا ضئيلاً إلى إثارة هذا الموضوع من الحديث بين الجماعة ، وأقول الحق يا (فيلون) إني لأفضل أن أتناقش مع أحداً على انفراد في مثل هذا الموضوع . الرقيم السابق . إنني روحك في الجبال — مقربة بمشكك للخرافة السوقية — تنص بك أشواطاً بعيدة ، فأت حين تشمل بحجة لاتفي شيئاً مقدساً موثقاً حتى في طرك .

(فيلون) : ينبغي لي أن أعترف بأنني لغل حذراً في موضوع الدين الطبيعي متى في أي موضوع آخر ، ذلك لأنني أعرف أنني لا أستطيع البتة في ذلك البحث أن أصد مبادئ رجل سليم الذوق ، وكذلك لأنه ليس ثمه امرؤ — وأنا واثق من هذا — أبدو في عينه سليم الذوق ينظفه مقاصدي . وأنت يا (كليايش) على التخصيص وأنا أعيش ملك في ألفة طبيقة ، تشهر بأنه يرغم الحرية في حديثي وعجبي للجمع القريبة فليس هنالك من هو أعمق مني إحساساً بالدين المنطبع في نفسي أو أشد تعلقاً بالوجود الإلهي كما يشكك في العقل بين ابتداع

عملية مختلفة وإن من يتأمل هذه على ما يجب يجد أن الطبيعة لا بد وأن تكون قد وافقت في كل منها بين عشر ملائيم مختلفة على الأقل لكي تدرك العاية التي شرحتها . أعني بذلك الشكل المناسب ومنطاطية صحيحة واستعدادا موبيا للغايات السديدة ووصفا أعلى وأسفلا لكل واندماجا ملائما للأصناف والأوعية والشرابين العديدة بحيث لا بد لنا يزيد من ستة آلاف غاية ومقصد أن تكون مكونة ومتحققة في العضلات وحدها . وهو يحصى النظام ٢٤٨ والأفراس المنيرة التي تهدف إليها في بنية كل تزيد على أربعين . يا للإبادة الهائلة عن التفنن في هذه الأجواء البسيطة المتجانسة ! ولكننا إذا تأملنا الجلد والروابط والأوعية والشد والارمجة وأطراف الجسم وأعضائه العديدة فأى دهشة لا بد وأن نعرونا من عدد الأجزاء المتوافقة توافقا تافها ومن تمقدها وكلما تقدمنا في هذه الأبحاث اكتشفنا مفعدا جديدة للفن ولكننا نلاحظ على بعد - في بنية الأجواء الباطنية وفي تدبير الملح وفي آله الأوعية البنية مشاهد تمدو مالا . كل هذه الأنايين تتردد في كل نوع يختلف من أنواع الحيوان في تنوع رائع وناسب دقيق ينسق مع مقاصد الطبيعة المختلفة في تكوينها لكل نوع ، وإذا لم تستطع عدم دقة (جالينوس) - وحتى حين كانت هذه العلوم الطبيعة ناقصة - أن تخاوم مثل هذه العناصر القوية فأية مرتبة من مراتب العناد المتدب لا بد أن يصل إليها فيلسوف من هذا العصر يستطيع أن يشك الآن في عقل سام ؟

لئن كنت قد التقيت بأحد هؤلاء - وأشكر الله على أنهم نذرة -

لسأله : هب أن كان هنالك إله لم يكف من نفسه كشفنا مباشرة لحواستنا أكان في مكتته أن يدل على وجوده بأداة أقوى مما يقبى في وجه الطبيعة ؟ بل ما إذا كان يوسع موجود إلهي هذا شأنه اللهم إلا أن ينقل التدبير الراهن للأشياء ويجعل الكثير من أفايته من الساعطة بحيث لا نحس على الأغياء ويقدم لمحات لأنايين أعظم تيرهن على سموره الخائل ويصحب أنايين كثيرة عطيفة حبيبا تاما من مثل هذه المظفرات الناقصة ؟ والآن طبقا لقواعد الاستدلال الصحيح جميعا لا بد من التسليم في غير جسدال بكل واقعة مدعومة بكل المجمع التي تتبعها طبيعتها حتى وإن لم تكن هذه المجمع في ذاتها عديدة أو قوية . وما أبلغ ذلك في الحالة الراهنة حيث لا يسع شيئا بشريا أن يحصى عددها ولا فها أن يقدر قوتها .

(كياش) : وأضيف - فوق ما حذرت أنت تحيذا طلياً - أن إحدى الميزات الطيبة لمبدأ الاعتقاد هو أنه المذهب الوحيد ليدم الحقيقة الذي يمكن أن يكون معقولا وناسبا . بل ويمكنه كذلك إمكانا مطلقا أن يحفظ بمائة قوية لكل ماراه كل يوم ونفس به في العالم . إن مقارنة العالم بأآله من استدعاء البشر لمقارنة بالآله الفروض وطبيعة ويررها أمثلة عديدة لنظام والتدبير في الطبيعة حتى أنها تؤثر - لا محالة - تأثيرا مباشرا في المفاهيم المتزعة جميعا وتتوصل إلى دحائهم المطلق عنها . وإن من يحاول توحيه هذه النظرة لا يسهه أن يدعى النجاح في الاستماع عنها فيروها دقيقة محددة . (إنه ليكتبه إذا

بأدر بالشكوك والإشكالات ووصل بآراءه من الأشياء ثانية مجردة إلى ذلك التلحق للحكم وهذا هو الحد الأقصى لرغباته . ولكن فضلا عن أن هذه الحالة للذين هم في نفسها غير مقنعة طيبس في وسعها البينة أن تقف ثابتة أمام هذه المظاهر القوية بحيث ترجحنا ربطا متصلا بالفرض الذي . من الممكن للطبيعة أن تلح في إصرار وعناد نظاما زائفا باطلا ، ولكنني لا أظن أن نظاما يمارس نظرية يمزجها سب قوي واضح ونزعة طبيعية وتعليم باكر ، أقول لا أظن أن من المستحيل إطلاقا اعتناق نظام كذا أو الباطل عنه .

(فيون) : إن تعليق الحكم في هذه الحالة يمكن في نظري . امكانا ضئيلا حتى أنني ملحق أن أشك في أن نغ ما يقرب من مساجلات لفظية قد دخلت في هذا الجدل أكثر مما يحل لنا عادة . أما أن أعمال الطبيعة تشبه شيئا عظيميا ثمرات القمر - فهذا واضح ، وطبقا لقواعد الاستدلال جميعا ينبغي لنا إذا كنا نتناقش بصدها أن نحاصر بأن نقاسمها متناسبا قائم بين عللها . ولكن لما كان هنالك كذلك اختلافات ملحوظة حتى لنا أن نقترض اختلاف متناسبا في العلل وينبغي لنا بوجه خاص أن نحمل للعللة الاسمي درجة من القوة والقدرة أعلى من أي درجة لمعا لاحظناها - في الجنس البشري . هنا إذن يتأكد وجود الله بالفعل فأكدوا واضحا ، وإذا فسلنا أنفسنا - استعدادا إلى هذه الملاحظات - أن نسميه حق ذهنا أو ذكاهم رغم الاختلاف التاسع الذي قد يفترض بحق بينه وبين الأذهان البشرية ، أليس هذا إذن بعض جدال لفظي ؟ ليس ثمة

الإنسان يستطيع أن يشكر الماتلات بين الممولات . إننا لا نكاد نستطيع أن نكبح أنفسنا عن البحث في هل يندر إمكانها . والنتيجة المشروعة من هذا البحث هي أن بين العلل مماثلة أيضا ، وإذا لم تمنع بدعوة الله الأولى الأسى لها أو أنه بل تروم تنزيح التعبير فإذا يحسن أن ندهره اللهم (لا ذهنا أو فكريا يفترض بحق أنه يشبه شيئا ملحوظا ؟

إن جميع الناس ذوي العقل الراجح يزدرون بالمساجلات اللفظية التي تفرق فيها الأبحاث الفلسفية واللاهوتية . وقد وجد أن العلاج الوحيد لسوء استعمال الألفاظ لا يتأخر إلا بتعريفات واضحة وضبط تلك الأفكار التي تدخل في أي حجة والاستعمال الدقيق المنسق للحدود المستخدمة . ولكن هنالك نوعا من الجندال يبطوى - تبعا لطبيعة العلة والأفكار الإنسانية - على غرض دائم ، ولا يمكن قط بأي احتياط أو أية تعريفات أن يبلغ يقينا معقولا أو دقة معقولة . هذه هي المجادلات في درجات أية كيفية أو ملاية ، ففي وسع الناس أن يتناقشوا إلى الأبد فيما إذا كان (هانيبال)^(١) رجلا عظيما أو عظيما جدا أو عظيما إلى حد فائق ، أو أي درجة من الجلال بلغت (كلبو باطرا) وبأية

(١) (هانيبال) . (٢٤٧ - ١٨٣ ق م) القائد المرمط الحنبوري الذي دوع روما وكانت حياره « هانيبال حل الأبواب » خزع كل دومان . قال أحد قواده « أنت تعرف كيف تنصر ولكنك لا تعرف كيف تنقذ بأعصارك » . (التاريخ)

هجرة (نوح) (لبي) أو (تكديس) ، دون أن يصلوا بالمجادلة إلى قرار ما . قد يفتق المختصون هنا في المعنى ويختلفون في الالفاظ أو العكس ولكنهم لا يستطيعون قط تحديد أفعالهم حتى ينفذ كل منهم إلى ما يجبه الآخر ، ذلك لأن درجات هذه الكيفيات ليست مثل درجات الكم أو العدد يمكن أن تضع لأي قيس دقيق بنحو ميسر في المجادلة . وسيلبر بأيسر بحث أن الجدال في الاعتقاد من هذه الطبيعة ليس إلا جدالاً لفظياً أو قد يكون إذا أمكن أشد غوصاً بدرجة لا غلط فيها .

إنني لأسأل المؤمن أليس يعلم علاف عظيم لا ينفاس - لأنه لا يحاط به - من الذهن الإنمى والذهن البشري ؟ وكذا كان أكثر تقوى كان أكثر استعداداً للرد بالإيجاب وكان أكثر ميلاً إلى تقسيم الخلاف ، بل إنه ليقدر أن الخلاف قد بلغ حداً لا يمكن منه زيادة تقسيمه . ثم اتحول بعد ذلك إلى الملحد وهو كما أقرر ليس ملحداً إلا بالإسم وليس يمكن قط أن يكون جامداً . ثم أسأله أليس من الارتباط والتعاطف انبأدى في أجزاء العالم أن هناك درجة معينة من المماثلة بين عمليات الطبيعة فيما في كل حالة وفي كل عصر ، أليس فساد الفلك وتواله حيوان ونبات فكر بشري ، أليس هذه طاقات قد تنفد من بعيد بعضها البعض . حال أن يستطيع التكرار ، إنه ليأبى بالتسليم . وما أن أصل إلى هذا الإذعان حتى أدفع به قدما في تهقيره وأسأله أليس من الواجب أن المبدأ الذي رتب النظام في العالم أولاً ولا يزال يحتفظ به يحصل أيضاً

فإن ما يختلف أحتمل اختلاف عنه يكون هو الأبعد عن المبدأ الاسمي للاستقامة والكمال^(١) .

هذه يا (كلياتس) مضاعرة المخلصة من هذا الموضوع وأنا كما تعلم لا أقتا عاقلاً عليها متراً على الدوام . يد أن متى للخرافات الشعبية يبدل توقيري للدين الحق وإنني لاستنصر لذة خاصة - وأهترق بهذا - في أن أدفع هذه المبادئ إلى البطلان أحياناً وإلى المعصية أحياناً أخرى . وأنت تضرر أنت المتصين جميعاً برغم كراهتهم الشديدة للأخيرة - وهي أشد من كراهتهم لأول - موصوفون جميعاً جميعاً على حد سواء .

(كلياتس) : أنا أزع مزعاً مضاداً ، فالذين حتى لو كان

(١) يبدو واضحاً أن فلسفة نيتشه والديجاينين من مساحلة لفظية تماماً أو هي على الأقل تبنى حسب بدوالات الفكر والتي ليس لنا أن نعصب بها في كل برهة . وحمل هذه المسائل على على البدوء لفظية في فراوها ولا تتبع أي تعصب دقيق . فليس ثم من فيلسوف ديجاين يشكر أن هناك إشكالات تحصل بالمعنى والمبدأ وأما هذه الإشكالات لا تحمل على الامتلاك منج متعلق متعلق . وليس ثم من شك يشكر أنها تم تحت ضرورة سلفية - بصرف النظر من هذه الاشكالات - في التفكير والاعتقاد والبرهنة فيما يصل لجميع ضروب المروجات بل وفي المواجهة أحياناً في حجة وشبان . ومن ثم فالملاب الوحيد بين هاتين التفتيش - إذا استأخذت كل منهما هذا الاسم - هو أن تلك يلج - من مائة وعوى أو ميل - أعظم إضاح على الاشكالات ، ولعل الديجاينين لأسباب مماثلة على الضرورة .

[لؤلؤ]

مماثلة تبدو تصوراتنا لعمليات الطبيعة الأخرى ، ويجعل بين سائرهما مماثلة لتدبير الذهن والفكر البشري ؟ وأياً كان تردده يتجسم عليه أن يبدى موافقة ، ثم أصبح في هذين الخصمين مما : أين إذن موضوع السجال ؟ يعلم المؤمن بأن العقل الأحيل يختلف جدا عن العقل البشري ويعلم الملحد بأن مبدأ النظام الأحيل يحمل شيئاً من المماثلة البعيدة للعقل البشري ، هل تشتتجرون يا سادة على الدرجات وتزجون بأهكم في نزاع لا يعلم إلى معنى دقيق وبالتالي لا يؤدي إلى أي تحديد ؟ إذا كان لكم أن تلمزوا العناد فليس لي أن أدعش إذ أراكم تنتقلون من جانب إلى آخر ، فبما هوئلك المؤمن من ناحية في انتفاء التشابه بين الموجود الاسمي وبين المحركات الرائعة النافذة المتعمرة المضاعفة القدية ، يعظم الملحد من ناحية أخرى المماثلة بين عمليات الطبيعة جميعاً في كل حقة وفي كل حالة وكل وضع . تأملوا إذن أين تقع النقطة الحقيقية للنزاع وإذا لم يسمعكم أن تدهروا مساجلتكم جانبا لمحاولوا - على الأقل - أن تيرثوا أضعكم من حذكم .

وهذا يا (كلياتس) يتجسم على أيضاً أن أقر بأنه كان لأعمال الطبيعة مماثلة لمحاولات فتنا وابتدعنا أعظم من مماثلتها لمحاولات جودنا وعدنا فتنا حتى استخلص أن الصفات الطبيعية هي صفات صفات الانسان أعظم من مشابهة صفاتها الحقيقية لصفات الانسان . ولكنكم إمامي العجيبة ؟ ليست إلا أن كيفيات الانسان الحقيقية أنقص في نوعها من استعداداته الطبيعية . إذ كما نعلم بأن الموجد الاسمي كامل كلاً مطلقاً تماماً

فأسدأ غير من لا دين على الإطلاق . وإن نظرية وضع مستقل هي حثيان قوى ضروري للأخلاق حتى أنه لا ينبغي لنا أن ندها جانباً أو نهملها . إذ إذا كان للثبوتية وللقوبة أثر عظيم جداً كما نلاحظ هذا كل يوم فكيف من أثر عظيم يلوم توفقه من شوبة وعقوبة لامتناهية سرمدية ؟ (فلون) : إذا كانت الحرافقة السوفية بالغة في تفهم المجتمع فكيف إذن تحصل التاريخ يصف حواقبها الويلة على الفنون العامة ؟ فالتفنن والحروب الأهلية والاضطهادات واندثار الحكومات والاستبداد والعبودية هذه هي العواقب الوخيمة التي تصحب دواماً غلبة هذه الحرافقة الشعبية على أذهان الناس . وإذا ذكرت الروح الدينية في أية رواية تاريخية لا يقنا أننا سنلقى فيها بعد تفاصيل من الشفاء الذي يصحبها ، وليس ثم حقة في الزمان يمكن أن تكون أسدأ أو أكثر رفاة من تلك الحب التي لم يكن فيها اعتباراً ما هذه الروح الدينية أولم يسمع عنها فيها .

(كلياتس) : سبب هذه الملاحظة واضح فحة الدين الخاصة هي أن يفسق الناس ويسم سلوكهم بالمعنى الإنساني ويضع روح الاعتدال والنظام والمناعة . ولما كان عمله صامتا ويؤدى وحسب دوافع الأخلاق والمعادلة فهو في خطر من إغفاله والمخلط بينه وبين هذه الدوافع الأخرى . وعند ما يتدبر الدين ويؤثر على الناس كأنه كيداً متفصل يبدل من جهالة الخاص ويندو وحسب غذاء الفتنة والطمع .

(فلون) : وهكذا شأن كل دين ماعدا الضرب الفلسفي

العقل منه . والقلم من استدلالك أبسر من القلم من وقائمه .
فالاستدلال ليس صحيحاً لأن الثبوتات والمقولات المتناهية الموقوفة
لها من التفرد العظيم ما يلزم منه أن يكون للثبوتات
والمقولات اللامتناهية السردية تفرد أعظم . وإن لا ضرع اليك أن
تلاحظ ارتباطنا بالموضوعات الحاضرة والماضية التي نجنيها من ملاحظة
الأشياء الباقية في بعدها عنا وعدم يقينها . وعند ما يحل أسئلة اللاهوت
في خطائهم على سلوك الناس العام يعرضون دائماً هذا المبدأ على أنه
أقوى ما يتخيل من المبادئ ، وهو كذلك حقاً . ويصفون الجنس
البشرى - في الغالب - عاصداً لتفرد وغارتاً إلى اعماق اعماق الخمول
وهدم الميالة بمخاضهم الدينية . يد أن هؤلاء الأساتذة اللاهوتيين
أنفسهم عند ما يضمون خصومهم التاملين يفترضون لدوافع الدين من
القوة العظيمة ما يستحيل معه بقاء المجتمع المدني بدونها ولا يتصورون من
هذا التناقض الجلي . ويتبين من التجربة أن لأحوال قدر من الشرف
والجود الديني أقرأ على سلوك الناس أشد من أثر الآراء النخبة التي
تورس بها النظريات والمذاهب اللاهوتية . ثمة زعة طبيعية في الإنسان
تؤثر فيه دون انتفاع وهي مائلة دوماً في الدهن وتخرج بكل رأى وكل
اعتبار على حين أن الدوافع الدينية إذا أتيج لها أن تنشط فإنما تعمل
عليها في الثبات والظفرات حسب ، وقبلها يمكنها أن تصير أمراً اعتيادياً
في الدهن . يقول الفلاسفة إن قوة أعظم جاذبية على صفة بما لا يجد
إذا قيس بقوة أسأل دفع ، يد أنه من البقي أن أحوال جاذبية تفوق

في النهاية دفعا عظيماً إذ ليس ثمة صدمات أو ضربات يمكن تكرارها
بمثل اطراد الجذب والجاذبية .

وثمة ميزة أخرى للزعة ، فهي تسحب من جانبا كل فظة وعبقرية
في الدهن ، وعند ما تواجه المبادئ الدينية تلتصق كل منبج وفي الإقلاص
منها ، وغالباً ما تصبح . ومن ذا يستطيع أن يكشف ما في قلب الإنسان
أو يفسر تلك التكتلات والأعداد التي يمرى الناس أنفسهم بها عند ما
يتبعون نزعاتهم بما يتعارض مع واجهم الديني ؟ هذا مفهوم فيما طيا
بين الناس جيماً وليس هناك من تفنؤل ثقته في الإنسان غير الحقنى
لأنهم يعلمون أنه ما فقه . يلو في دراسته للفلسفة شيئاً من الشكوك
التأملية المنصبة على الموضوعات اللاهوتية . وعند ما ينطق الأمر برجل
يتخذ من الدين والعبادة حرفة رابغة فأى أثر يكون له على العقلاء المتزين
الهم إلا أن يأخذوا حذرهم منه وإلا انطى عليهم غشه وخداه ؟

يجب علينا أن ندخل في اعتبارنا أن الفلاسفة الذين يستثمرون
العقل والتفكير تقتل حاجتهم إلى مثل هذه الدوافع لتتقدم بقيد
الأخلاق ، وأن السوق الذين قد يفترضون وحدهم إليها قد يقصرون
قصوراً تاماً عن دين خالص كذلك الذى يمثل الإله لا يروقه شيء . الهم
إلا فضيلة في سلوك البشر . ويظن بوجه عام أن التناهي على الآلهية
لا يخرج عن كونه مقتصراً نافهة أو اجتذاباً ذاهلاً أو تصديقاً مغرطاً .
وليس يعودنا أن نمود إلى المصور القديمة أو نهم في مجالات نصبة
لنقف على أمثلة لهذا الانعطاط . وقد انهم بسببنا تلك النطاعة التي لم

تكن مبروة في الحرافات المبرية والاغريقية وهي الخوض في ألقاظ
صريحة ضد الأخلاق وتثليها على أنها خسران أكيد للملف الإلهي إذا
وقتنا بها أمثال ثمة أو اعتدنا عليها أدنى اعتياد .

يد أن الحرافة وإن كانت لا تحف موقف تمارض مباشر مع
الأخلاق إلا أن تثقيت الانتباه ونشأة ضرب جديد ناه من التقدير
وتورثها الاحتمال بين المدح والقدح لابد وأن يكون لهذا أوخم العواقب
ولا بد وأن يوهن توهيناً تاماً ارتباط الناس بالدوافع الطبيعية للمدالة
والإنسانية .

وبالمثل لما لم يكن مثل هذا المبدأ للفعل أحد الدوافع المألوفة في
السلوك البشرى فهو يفعل فعله في المزاج من حين إلى آخر ولا مفر من
إثارته بمجهود متواصلة كي يحمل المتعصب الديني رضى كل الرضى من
سلوكه ويحقق واجبه في العبادة . وكثير من الرياضات الدينية يقبل عليه
بحمارة عاتلة على حين يشعر القلب في الوقت عينه بالبرودة والخمول ،
وتقتد بالتدريج عادة التفاف ويندو القدر والزيف المبدأ السائد . ومن هنا
سبب تلك الملاحظة السوقية وهي أن أقصى تعصب في الدين وأعمق
رياء - وهما أقصى ما يكونان تافهاً - يتحدان في أغلب الأحيان بل
ويتحدان اتحاداً شاملاً في خلق الفرد الواحد .

ومن السيلر تجيل الآثار السيئة لهذه العادات حتى في الحياة
العامة . ولكن حيث أخذت شواغل الدين على الناس أمرهم نجد

أن ليس في وسع الأخلاق أن تبلغ من القوة مبلغاً كافياً لتكبح جماح المتعصب
المتحمس . وإن قداسة القضية لتبارك كل شرعة تنفع بها في خدمتها .

وللى الانتباه الثابت وحده إلى منفعة بالغة الأهمية وهي الخلاص
السردى ، إلى هذا الانتباه وحده يرجع نخود عواطف الجود ونشأة
أثابة متروكة ضيقة الأفاق . وعند ما يتضح مزاج كذا يغلت في بئر من
جميع التعاليم العامة للإحسان والجود .

وعلى هذا لا يكون لدوافع الحرافة السوقية نفوذ عظيم على السلوك
العالم ، وليس عليها في الحالات التي تسود فيها مناسبات للأخلاق .

أثمة قاعدة في السياسة أبين وأبعد عن الخطأ من تلك التي تقول إن
سلطان القس ينبغي أن يحد في دائرة ضيقة جداً وأنه ينبغي على
الحاكم المدني أن يحفظ شعاره وحرابه دائماً من هذه الأبدى الخطرة ؟

ولكن إذا كانت روح الدين الشعبي بالغة التمتع للمجتمع فينبغي
لقاعدة أخرى أن تسود . وإن عدداً أعظم من القس وسلطاناً وثروة
أضخم لهم لتبقى دائماً الروح الدينية . ومع أن القس نهاية هذه الروح
ظلم لا تتوقع طهارة أرفع للحياة واعتدالا وجوداً أعظم من أشخاص
قد تورفوا على الدين وبدأيون على طبعه في نفوس الآخرين ويستم
عليهم أن ينشروا بأعظم نصيب منه ؟ لم إذن كان غاية ما يسع الحاكم
القيام به في الواقع صدد الأديان الشعبية هو أن يأمن جانبا بها
ويجتنب عواقبها الويلة في المجتمع قدر المستطاع ؟ وكل حيلة يستل بها

لتحقيق هذا الفرض تكسبنا المشقات . فإذا أباح لأفراد شعبه ديناً واحداً لحسب لتجنّب عليه أن يعضى - علماً منه في سكونية لا يمين منها - بكل اعتبار الحرية الشعبية والعلم والعقل والصناعة بل وكل اعتبار لاستقلاله الخاص . وإذا جعل الأفضلية لشيء متعده - وهذا هو المبدأ الأقرب إلى الحكمة - لوجب عليه أن يحفظ بسوية فلسفية شديدة بينها جميعاً ، وأن يكبح بعناية دعاوى الشيعة الغالبة ، وإلا لما وسعه أن يتوقع شيئاً اللهم إلا مساجلات ومعارك وشقايات واضطرابات وقتاً أهلية لا نهاية لها .

ليس للدين الحق - كما أرى - مثل هذه المواقف الويلة ، بل يجب علينا أن نعالج الدين على نحو ما نجدّه بوجه عام في الدنيا وليس لدى ما أمله بعتيدة المؤمنين النظرية وهي - لما كانت ضرباً من الفلسفة - يلزم أن تشارك في التأثير النافع لهذا المبدأ ، ويلزم في الوقت نفسه أن تخضع للشفقة عليها أى تنحصر دائماً في عدد ضئيل جداً من الأشخاص .

إن القسم المطلوب في جميع دور القضاء يد أن موطن التساؤل هو ما إذا كانت سلطته ناجمة عن دين شعبي ما . إن القيد الرئيسية المفروضة على الجنس البشرى هي وقار الظرف وأهميته ومراعاة السمعة والتفكير في منافع المجتمع المسماة . القسم السياسي ليس له إلا اعتبار ضئيل جداً حتى عند البعض الذي يدعى نفسه مبادئ في الشرف

والدين . وإن جرم جماعة (كويكر)^(١) ليستوى عندنا بحق مع قسم أى شخص آخر . وأنا أعلم أن (بوليبوس)^(٢) يبرو حجة الإيمان إلى غلبة الفلسفة الأبيقورية ولكننى أعلم أيضاً أن الإيمان الوثائق^(٣) كان له من السمعة السيئة في الزمن القديم ما يشهده في إرلنده في الزمن الحديث وإن كنا لا نستطيع أن نمل هذه الملاحظات بالسبب نفسه . هذا إلى أن الإيمان الأخرى كان مسبقاً قبل ظهور الفلسفة الأبيقورية . وفي فترة ساذكرها لك فيما (أرويدس)^(٤) ، وطنه هجاء ملحوظاً بصدده هذه الملاينة .

(كليانثس) : خذ حذرك يا (فيلون) خذ حذرك ولا تدفع

(١) كويكر Quaker : فرقة دينية تأسست في القرن ١٧ ، وانتشرت خاصة في إنجلترا والولايات المتحدة وهي فرع من البوريتان .

(٢) بوليبوس Polybius : مؤرخ ، وُلد بين ٢١٢ - ٢٠٥ ق م . له كتاب تاريخ الأمم لصرد ، وهو مؤرخ في السكيا بالجزيرة والامام بما هو جوهري . لم يبق منه إلا لغة أسفار من معنى ما يلى من التراث القديم . تولى : إلى ١٢٥ ق م .

(٣) وثائق Punie Belief : إشارة إلى الحياة التي يسم بها الرومان أهل قرطاجنة .

(٤) أرويدس Eurpides : أكثر الشعراء اليونان الذين الثلاثة الكبار . (اسيكولوس-سينوكليس-أرويدس) . و Iphigelia in Tauride مسرحية تراجيكية ، وقد كتب جوه مسرحية بهذا الاسم كذلك قائمة على أسطورة يونانية . أيجينيا بنت أجاممنون أسعد أبطال اليونان أراد أن يحميها غريباً للكلمة ديانا ، فأخذتها وجبتها كاهنة في مبدعها . (المترجم) .

بالأمور بعيداً ! لا تدع حماسك ضد الدين الباطل تهدم توقيرك للدين الحق . لا تفرط في هذا المبدأ وهو سلوانا الوجودية الهامة في هذه الحياة وسندنا الأساسي وسط انقضاضات الخط الماكس : وأحب تفكير يمكن للخيال البشرى أن يوسى به هو الاعتقاد الخالص الذي يمثّلنا على أننا العمل البشرى لوجود كامل في غيره وحسنه وقوته ، خلقنا للخدمة ، وهو إذ غرس فينا رغبات الخير لا تعد بسيط وجودنا إلى السردية ويستقل بنا إلى تنوع لا نهاية له من المشاهد لأرضنا . تلك الرغبات يجعل نعيمنا مستكلاً دائماً . ثم إن أسعد نصيب يمكننا أن نتخذه من هذا الموجود - إذا أحييت المقارنة - هو أننا في كنف رعايته وحمايته .

(فيلون) : هذه المظاهر البالغة في إغرائها واستئثارها وهي في نظر الفيلسوف الحق تريد عن كونها مظاهر ولكن يحدث هنا كما حدث في الحالة السابقة أن المظاهر في نظر أغلب الناس غداً وأن أهوال الدين تفوق بوجه عام نعمة .

ومن المسلم به أن الناس لا يلجأون قط إلى العبادة بنفس الاستعداد الذي يلجأون به إليها عندما يكرههم الحزن أو يذلم السقم . أليس هذا دليلاً على أن الروح الدينية ليست وثيقة الارتباط بالهجة شأنها مع الأسمى ؟

(كليانثس) : ولكن الناس حين يحزنون يمددون هرامم في الدين .

(فيلون) : أحياناً ، ولكن من الطبيعي أن نتخيل أنهم يكونون فكرة عن تلك الموجودات المبهولة تناسب مزاجهم الزاكن المظلم الحزين عندما يأخذون أنفسهم بالتأمل فيها . وبالتالي فمن بعد الصور المبهولة لسود في كل الأديان ، ونحن أنفسنا - بعد أن نستندم أشرف البارات في أوصافنا - ننع في تناقض صارخ حين نقرر أن عدد الملهوين يفوق بما لا يحصى عدد الصفوة .

سأجسر فأقرر أنه لم يكن هناك قط دين قد مثل حالة النفوس المتوفرة على الدين تمثيلاً يجعل هذه الحالة مرغوبة للجنس البشرى . هذه الفانذخ الواجبة للدين هي ثمرة الفلسفة الخالصة . إذاً كان الموت جاثماً بين الحاضر والمستقبل فإن تلك الحادثة بالغة في تأثيرها في الطبيعة حتى أنها لاغر من أن تفصل بالظلمة كل المحاولات التي تقع ورامها وتوسى للجنس البشرى عامة فكرة شياطين وتيارات من النار والكبريت .

والحق إن الخوف والرجاء يدخلان معاً في الدين ، إذ أن هاتين العاطفتين تيجان معاً في ذهن البشرى في أوقات مختلفة ولكنها تكون ضرباً من الألوهية يتفق معها . ولكن الإنسان عندما يكون منشغلاً بصلح العمل أو الرفقة أو الترفيه من أى لون وهو يسترخى بالطبع فيها ولا يفكر في الدين . وعندما يكون مكتئباً شبيطاً لا يكون لديه ما يفعله اللهم إلا أن يتأمل في أهوال الدنيا الحقبة ويدفع بنفسه إلى أغوار الحزن . وقد يحدث أيضاً - بعد أن يكون قد ثبت على هذا النحو

المعتقدات الدينية تثبيتاً عميقاً في تفكيره وخياله - تغير في الصحة أو الملابس بعيد له مزاج الحسن ويثبت مشاهد بهجة في المستقبل يجعله يمدد إلى الطرف الآخر طرف البهجة والنشوة . بيد أننا يلزم مع هذا أن نقرر أنه كما أن التحول هو المبدأ الأول في الدين فهو العاطفة التي تسود دائماً فيه ولا تتيح إلا فترات قصارا وحسب من اللذة .

هذا إلى أن هذه التوبات من الابتهاج الفائق الحاسي إذ تهك الأرواح تمهد دائماً السيل لتوبات معادلة من الحول والتثبيط الخرافي، وليس مهمة حالة للذهن تبلغ من السعادة مبلغ الحالة المادية المتبادلة . ولكن يستحيل دعم هذه الحالة حين يذكر الإنسان أنه مقيم في هذه الحالة وهذا التشكك العميق بين سرمد من السعادة وسرمد من الشقاء . ولا عجب أن مثل هذا الرأي يقوض نظام الدين ويوقسه في أشد اختلاط .

وذلك الرأي وإن كان قديماً ثبت في عمله بحيث يسهل تخوذه على جميع الأفعال ، خلق أن يفتح ثمرة ملحوظة في المزاج ويولد الحزن والكتابة التي تلاحظ في جميع الناس الورعين .

وما ينافي الذوق السليم أن نلو توجسعات وأهوالاً استناداً إلى رأى ما أياً كان ، أو أن نتخيل أننا نركب خطراً ما حين نستخدم عقناً استفهاماً حليماً . إن شعوراً كهذا ينطوي على بطلان وتناقض . من البطلان أن نعتقد أن لله عواطف بشرية وواحدة من أدنى

أو على الأقل لا تعريف لها - وهي : ان علة أو علل النظام في العالم تعمل على الأرجح بمائة بعيدة المدى للعقل البشري . وإذا لم تقبل هذه القضية بنسبها وتوهم أو تفهيرا أكثر تخصصاً ، إذا لم تمدنا باستدلال يؤثر في الحياة البشرية أو أمكنها أن تكون مصدراً لأي فعل أو ميلاً للكف عن فعل ، وإذا كان التثبيط على نفسه لا يمكنه أن يعضى إلى ما هو أبعد الذكاء البشري ولا يمكن أن يتقل في أي مظهر من مظاهر الرجحان إلى كليات الدين البشري . إذا كان الحال كذلك في الواقع فما الذي في وسع رجل الدين الباحث المتأمل أن يفعل أكثر من أن يبدى موافقة بسيطة فلسفية على القضية كلها عرضت له ويستقد في أن الجميع التي تقوم عليها تفوق الاعتراضات التي تصدها أحقا إن ثمة دهشة تنبع بالطبع عن عظمة الموضوع ، وثمة كآبة عن غرضه ، وثمة ازدراء للعقل البشري إذ لا يستطيع أن يقدم حلاً أكثر استيفاء في مسألة خارقة بالغة في روعتها . ولكن صدقنا يا (كلياتش) إن أبلغ شعور طبيعي يستمره هذه المناسبة ذهن ممد لإعداداً طبيعياً هو رغبة مشوقة وتوقع في أن السماوات يسرها إذ تبدد - تبدد طفيفاً على الأقل - هذا الجهل العميق بأن تمد البشر بوسى خاص وتقوم بكشفوف في الطبيعة وفي صفات وأعمال الموضوع الإلهي لإيماننا . إن شغفا قد ركز في حصره صحيح بتفاصيل المنسل الطبيعي لطريق إلى الحقيقة المكتشفة بأعظم شغف ، بينما يقرأ أي للدماغ طبق المختبر أنه يستطيع أن يحدد مذهبا تاما اللاهوت يتسوق في الفلسفة وحدها فيحتقر كل هون

العواطف البشرية وهي الاشياء الذي لا يفرغ لثاني الاستحسان . ومن التناقض أن نعتقد أنه مادام قد هذه العاطفة البشرية فليس لديه عواطف أخرى أيضاً ويوجد خاص إغفال لأراء المخلوقات الدنيا .

يقول (سنتا) : أن تعرف الله هو أن تمده ، وكل عبادة أخرى باطلة خرافية لا تقوى فيها ، فهي تهبط به إلى حالة البشر الدنيا هؤلاء الذين ينتشون بالنوسل والاسترحام والمدايا والتملق . وإن عدم التقوى هذه هي أقل ما تدان به الخرافة . والشائع أنها تهبط بالله هيوطاً دائماً إلى حالة البشر وتمثله شيطاناً متقلب الأهواء يصطنع قوته بلا عقل وفي غير إنسانية . وإذا كان ذلك الموجود الإلهي مرحناً لأذى وذائل عباده الثمانين وطيشهم وم عمله البشري ، سيضحي البشر قربن تدور أغلب الخرافات الشعبية ، ولن يستأهل أحد من الجنس البشري عطفه اللهم إلا فئة من المؤمنين المتطهين الذين ينعون أو بالأحرى يحاولون أن يصيروا بصوريات مناسبة من كالات الله . وكذلك الأشخاص الوجدون الذين سيبغ عليهم عطفه وإيثاره ثم الشكاك الفلاسفة وهم أشبه تكاد تكون نادرة ، وهم - عن عدم ثقة طبيعية بقدرتهم - يقولون أو يحاولون أن يقولوا كل حكم يصدر هذه الذوات الدقيقة الخارقة .

وإذا آل اللاهوت الطبيعي يأكله - كما يبدو أن البعض يأخذ بهذا - إلى نسبة واحدة بسيطة - وإن يكن فيها شيء من العموض

آخر . وأن أول وأعظم خطوة جوهرية عند رجل الآداب في طريقه إلى أن يقدو مسيحياً ، مؤمناً مسيحياً هي أن يكون شاكاً فلسفياً . هذه قضية أنه (باميلوس) قاصداً - إلى تحديدها وأمل أن (كلياتش) سيقدر في تدخل في تربية تليده وتثيقه .

« لم يمس (كلياتش) و (فلور) في هذا الحوار إلى أبعد من هذا . ولا لم يؤثر في غيره - تلك اليوم - بأنها أعظم من تلك الاستدلالات التي لا تعرف بأقرب منه سراجتي لها جيلاً مهابية جاذبة أنظر أت مباحثه (فلور) أقرب إلى الرجحان من مبادئ (ميال) ولكن مبادئ (كلياتش) أقرب إلى الحقيقة . »

وأتى ،

فهرس

الصفحة	
١ - ٥	تصدير الأستاذ الدكتور عثمان أمين
٣	مقدمة المترجم
١٠	خطاب من (بافيلوس) إلى (هرثيوس)
١٤	الفصل الأول
٣١	الفصل الثاني
٤٩	الفصل الثالث
٥٧	الفصل الرابع
٦٦	الفصل الخامس
٧٥	الفصل السادس
٨٣	الفصل السابع
٩٢	الفصل الثامن
١٠٠	الفصل التاسع
١٠٧	الفصل العاشر
١٢٢	الفصل الحادي عشر
١٤٠	الفصل الثاني عشر

تصويب

الصفحة	المطر	التصويب	الخطأ
١٠	٨	كاتب	كاشفت
١٧	١	مبهة	مهمة
٢١	٨	أنه يتعم	أن يتعم
٢٥	١٧	سلكتك	ملك
٢٩	١٧	نفس	نفس
٣٠	١٧	الاتجاه إلى فن	الاتجاه فن
٣١	٣	تسلم	تلم
٤٠	٢	معلومات	معلومات
٥١	١٦	الصراح	الصراح

ولد سقط سمواً هامش من ١١٢ :-
(١) يثنى :- ألفردوس للفرد .

(المؤلف)